ابن شداد و كتابه (النوادر السلطانية)

سيرة صلاح الدين يوسف

(نظرية نقدية)

ابن شداد و كتابه (النوادر السلطانية)

سيرة صلاح الدين يوسف

(نظرية نقدية)

الدكتور: محسن محمد حسين

دار موكرياني للطبع والنشر

- ابن شداد و كتابه (النوادر السلطانية)

سيرة صلاح الدين يوسف (نظرية نقدية)

- **الكاتب:** الدكتور محسن محمد حسين
- **تصميم الداخلي:** گۆران جمال رواندزى
- **غلاف:** ريمان
- **السعر:** ٢٠٠٠ دينار
- **الطبعة الاولى:** ٢٠١٣
- **عدد:** ٥٠٠ عدد
- **مطبعة:** موكريانى (اربيل)
- **رقم الايداع:** (٨٣٠) سنة ٢٠١٣ في المديرية العامة المكتبات العامة.

تسلسل الكتب (٧٧٦)

سايت: www.mukiryani.com

ئيمەيل: info@mukiryani.com

فهرست

مقدمة ٦
ابن شدّاد يكتب سيرة صلاح الدين يوسف ١٦
((عدالة صلاح الدين يوسف)) ١٩
شيء من كرم صلاح الدين يوسف ٢٦
شجاعته – قدّسَ روحَه ٢٨
أشادات مؤرخه بجهاده ٣١
ولأحكين عنه ما سمعته منه ٣٢
إلتزامه بأهداب الدين او ما يُعْنونهُ إبن شداد ٣٥
طرف من صبر القائد و إحتسابه (رحمة الله عليه) ٤٢
ذكر نُبَذٍ من حلمه و عَفْوِه ٤٨
مروءة القائد (قدّس الله روحه) ٥٢
الأيام الاخيرة من حياة هذا القائد ٥٨
(ذكر عودة العساكر الاسلامية الى أوطانهم) ٦١
ذكر مرضه – رحمة الله عليه ٦٦
ذكر تحليف (أداء القسم) الملك الافضل الناس ٦٨
ذكر وفاته-رحمة الله عليه - و قدّس الله روحه و أحسن خَلفه للمسلمين ٦٩
موضع قبر السلطان ٧٢
ابن شداد و رسائل القائد ٧٤
زيجات و اولاد صلاح الدين ٨٠
مصادر الدراسة الأساسية ٨٨

مقدمة:

بتكليف من مؤسسة (موكرياني) ضمن مهمتها في نشر المعارف بمفاصلها المختلفة، و مساهمتها في نشر الثقافة التاريخية، يستوي في ذلك التاريخ القديم و الوسيط و الحديث، كان لنا هذا الاسهام.

و الواقع ان ليس ثم شخصية بارزة يستحقّ إهتمامنا-نحن الكرد- وله جاذبيته، اكثر من السلطان صلاح الدين (يوسف بن أيوب بن شادي الروادي الهذباني)، ولا أدلّ من غزارة الكتابة عنه، ولاسيما في عصره، ثم في العصور التالية، حتى ظهرت تصانيف هامة بعشرات آلاف الصفحات، و كذلك إهتمام الغرب بعصره اللامع و المثير، و ظهور كتابات بلغات المشرق الأخرى كالسريانية و الارمنية و العبرية. ثم ظهور عشرات، إن لم نقل مئات الدراسات حول هذا الرجل الباسل، سواء في ذلك في دول الغرب أو الدول العربية، خاصة في مصر و الشام ثم العراق و في كردستان.

وكان لنا إهتمامنا بهذا القائد منذ نحو اربعة عقود ونيف، حين نشرنا موضوعاً مطولاً دفاعياً للرّد على تقوّلات المؤرخ عزالدين علي الجزري المعروف بابن الأثير، و تطاوله عليه بشكل ملفِت للنظر[1]، على صلاح الدين يوسف، في كتابيه (الباهر في التاريخ الاتابكي) في الموصل و حلب و في كتابه (الكامل في التاريخ)، لأسباب ذكرناها في بحوثنا[2]. آو بالأحرى للرد على دفاع الاستاذ الدكتور عبدالقادر أحمد طليمات عنه، فهذا الاستاذ عُرف باهتماماته بابن الأثير، فقد حقق و نشر كتابه الاول المذكور و

---

(١) رغم ما قيل عن (كردية) هذا المؤرخ، انظر: محمد أمين زكي، مشاهير الكرد و كردستان، د. كمال مظهر احمد. ميژوو، كورتەباسێكى زانستى ميژوو و كوردو ميژوو. به ياريدەى ئەمينداريّتى گشتيى رۆشنبيرى و لاوان چاپكراوە، بەغدا ١٩٨٣، ل١٠١.

(٢) كتابنا: موضوعان في التاريخ الكردي، مطبوعات دار الثقافة و النشر الكردية، بغداد ١٩٧٥، بحوث في التاريخ الكردي، طبعة الاكاديمية الكردية، اربيل ٢٠١٢.

نال عنه درجة الماجستير في مصر، كما نال درجة الدكتوراه عن دراسة حول هذا المؤرخ الكبير.

لقد كتبنا دفاعنا عن هذا القائد في بحث، ثم ضمّه كراسنا ((موضوعان في التاريخ الكردي، سنة ١٩٧٥، اي قبل أن نستقرَّ على الكتابة عن (جيش صلاح الدين) لنيل درحة الدكتوراه، و قبل طبع الاطروحة في بيروت عام ١٩٨٦، بعشر سنوات. ثم توالت كتاباتنا عنه سواء على شكل كتب او حوارات حوله، طبعت سواء في اربيل او في السليمانية، اضافة الى بغداد و بيروت، وقد ترجمت الى اللغة الكردية. كما كتبنا بحوثاً عنه نُشرَت في بغداد و الكويت و الرياض. وقد تم جمع هذه البحوث المنشوره باللغة العربية و طبعتها الاكاديمية الكردية هذا العام ٢٠١٢ في كتاب اما بحوثنا المنشورة باللغة الكردية عن هذا القائد فقد طبعت الاكاديمية سنة ٢٠١٣ في كتاب ثان.

هذا وقد تطرقنا الى حميمية علاقاتنا معه في مقدمة (الكتاب-الحوار) المعنون (نناشد صلاح الدين ام نحاسب أنفسنا استجواب قائد بعد ثمانمائة سنة) الذي طبعته دار آراس، مع كتب اخرى لي عنه، أمّا ماحصل لنا مع هذا الرجل المقدام من مواقف تدعو الى الفخار، سواء في بغداد او في اربيل او في مصراته، فقد دوناها و نشرنا بعضها، ولاداعي لاعادة ذلك، هذا اضافة الى إشرافنا و مناقشاتنا للعديد من الرسائل في جامعات اربيل و السليمانية و في دهوك و حين تتوطّد علاقتك بهذا الصورة مع هذا الطراز من القيادة، تتوطّد-بالتالي- علاقتك مع من أرخ سيرته.

و المطلعون على مسيرة القائد صلاح الدين يوسف يعرف يقينا المكانة المرموقة، إن لم نقل الفريدة، التي تبوّأها القاضي مؤرخ مجريات أمور هذا الرجل، ضمن مؤرخي عصره، و مصدراً اساسياً لمؤرخي العصر الذي تلاه، لعل أشهرهم أبو شامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) مؤلف (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين-النورية و الصلاحية)، و ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر الأربلي (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) مؤلف كتاب (وفيات الاعيان و أنباء أبناء الزمان)، و إبن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مؤلف كتاب (مفرّج الكروب في أخبار بني ايوب) و مصادر أخرى كثيرة.

لقد اعتمدنا في دراستنا لهذا الكتاب الشيق على طبعته الأخيرة اي طبعة دار الأوائل بدمشق، سنة ٢٠٠٥، لأن محقّق الكتاب الصديق الاستاذ احمد ايبش قد بذل جهوداً واضحة في عمله، و قارن النسخة التي إعتمد عليها مع النسخ الأخرى، و مع الطبعات السابقة لمحققين آخرين، ولاسيما الطبعة المصرية التي حققها الراحل الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيّال، تلك التي طبعتها المؤسسة المصرية العامة للتأليف و النشر في القاهرة، سلسلة (تراثنا) عام ١٩٦٤، وكانت هذه الطبعة أحد مصادرنا في مرحلة الماجستير، و اكثر منها في مرحلة الدكتوراه، لأن طبعة دار الاوائل لم تظهر الى الوجود الا سنة ٢٠٠٣، ثم ظهرت الطبعة الثانية من هذه الدار.

و رأينا أن من المستحسن الوقوف على سيرة هذا الرجل:

اسمه:

بهاءالدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبه، اشتهر بـ(ابن شداد)، و كان (شدّاد) جَدّه لأمّهِ، وقد توفي والده وهو طفل، فربّي في رعاية أخواله (بني شداد) فَنَسَبَ نفسه اليهم.

ولد في الموصل عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م، فهو أصغر من صلاح الدين يوسف بنحو سبع سنين، و توفي بحلب سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٩م، اي بعد صلاح الدين بنحو ثلاث و اربعين سنة.

كانت بدايات تعليمه في مسقط رأسه، فحفظ فيها القرآن، كما قرأ كتباً على شيوخ هذه المدينة، في المعارف الدينية مثل التفسير و الحديث و القراءات و الفقه، و كذلك الأدب، و كانت المدرسة النظامية المعروفة في بغداد مركز إستقطاب لطلاب المعارف يومئذ من مختلف أرجاء العام الاسلامي، فارتحل اليها بهاءالدين يوسف، و بعد أن قطع شوطاً من تلك المعارف تمّ تعيينه معيداً في هذه المدرسة الشهيرة و كان

ذلك في سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، و له من العمر سبع و عشرين سنة قمرية (نحو ست و عشرين سنة شمسية).

واصل عمله في هذه المدرسة نحو أربع سنوات، بعدها عاد الى مدينته، و عُيّن فيها مُدرساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين ابو الفضل محمد ابن الشهرزوري، ولازم-حسب قول ابن خلكان- الاشتغال فيها، و انتفع من علوم نخبة من رجالات عصره، و ارتفع شأنه في الموصل بسبب الشهرة التي نالها، و بسبب من حكمته في التعامل، و رجاحة عقله و إتزانه في التفكير، عهد إليه الأتابك عزالدين مسعود (٥٧٦-٥٨٩هـ/ ١١٨٠-١١٩٣م) ملك الموصل، ابن قطب الدين مودود، بمهمة السفارة الى الخلافة العباسية سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، و كذلك إلى السلطان صلاح الدين يوسف في سنوات ٥٧٩هـ/١١٨٣م، ٥٨١هـ/١١٨٥م، و ٥٨٣هـ/١١٨٧م، في أمور تخصّ العلاقات بين تلكم الأطراف.

وفي العام الأخير المذكور (٥٨٣هـ/١١٨٧م) ادى فريضة الحج، وفي طريق عودته قررّ أن يتبرك بزيارة بيت المقدس المدينة التي استردّها صلاح الدين يوسف حديثاً، إلا أنه آثر أن يسافر الى دمشق، و يومها كان صلاح الدين يوسف يحاصر قلعه كوكب في محاولة لاستردادها من الفرنجة، و حين علم بوجود ابن شداد في العاصمة الثانية لمملكته الواسعة الأرجاء، طلب منه ملاقاته.

وقد روى الرجل هذا اللقاء في كتابه فيقول: ((فوصلتُ الى دمشق، فبلغه خبر وصولي، فظنّ أني وصلت رسولاً ((سفيراً)) إليه من جانب الموصل في موضوع فتح حوار للمصالحة بينه و بين أتابك الموصل، فاستدعاني اليه، و استقبلني بالاكرام و الاحترام[٣].

ثم جرى بينهما كلام عن المشايخ و امور الشرع، ثم يعلن القاضي المؤرخ انه حين غادر مجلس السلطان ليزور القدس، صحبة بعض رجال دولة صلاح الدين، كان أبرزهم

(٣) ابن شداد، النوادر، ص١٦٦.

مؤرخ العصر الشهير عمادالدين الكاتب الاصفهاني. و ابلغه بأن السلطان يودّ ان يكمّل زيارته للقدس ثم يعود للعمل في أجهزة دولته و هذا ما نفذه إبن شداد، رغم انه كان عازماً العودة الى موطنه و يترك التدريس، و يتفرغ للعبادة و للمطالعة و التأليف.

و كان قد ألف أثناء مكوثه القصير في دمشق كتاباً في فضائل الجهاد و أحكامه و آدابه و أهداه الى سلطان المسلمين، فأعجبه، و صار يطالعه باستمرار. يقول إبن خلكان أن هذا الكتاب يحتوي على نحو ثلاثين كراسه[٤].

و يروي ابن شداد كيف طلب منه صلاح الدين يوسف ان يصاحبه في جولاته، و لايغادره الى الموصل، و الحقه بجيشه، ويقول: مازلت أطلب منه دستوراً (إذناً) للعودة الى الموصل، لكنه يلحّ عليّ بالبقاء، و يثني عليّ، ثم ارسل-اي السلطان- مع الفقيه المعروف ضياءالدين عيسى الهكاري ليعلن انه يبغي مني أن أبقى معه، و يضيف: وكان الله قد أوقع في قلبي محبّته حين الفيت ما يفعله للمسلمين، و مدى تعلّقه بالجهاد، فأحببته، و خدمته من تاريخ مستهل جمادي الاولى سنة اربع و ثمانين (بداية تموز ١١٨٨م، هنا يسجل الرجل تاريخ التحاقه بدولة هذا القائد و ركبه المحارب، و بذلك إلتقى السيف مع القلم. فما كان من صلاح الدين يوسف إلاّ و عينه قاضياً لعسكره، و قاضياً على مدينة القدس.

ظل الرجل في خدمته ملازماً له و لجيشه، لا يفارقه ليل نهار، حسب قوله، إلى أن ادركته الوفاة في دمشق في أواخر شهر صفر ٥٨٩هـ/ اذار ١١٩٣م.

ان هذه الرفقة دفعته الى تأليف كتاب عنه، ما جعله يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، للود الكبير الذي صار يربط بينهما، يقول (ستانلي لين بول) تتّسم كتابة ابن

(٤) هذا الكتاب مخطوط (دەست نووسه) مودعة في مكتبة كوپروللو/ koprullu باستانبول، ولم يتم تحقيقه و نشره الى لآن.

شداد بحس سليم و صدق و بمنتهى الرزانة، حتى أننا لا نستطيع العثور في كتابه على شيء من التحيز و الاغراق. فيما يسمى الغلوّ الشرفي[٥].

كان بهاءالدين يوسف صحبة القاضي الفاضل (عبدالرحيم البيساني) في الأيام التي سبقت رحيل السلطان حتى اللحظة الأخيرة. و دوّن مشاهداته و ما حصل في قلعة دمشق، مقر صلاح الدين يوسف، في ذلك اليوم العصيب.

ثم غادر دمشق و توجّه منها الى حلب، و أضطلع بدور مهم في التقريب بين أولاد السلطان، بعد أن دبّ خلاف بينهم، و حاول هو و القاضي الفاضل، جمع كلمتهم و تحليف بعضهم لبعض، ولاسيما بين الملك الظاهر شهاب الدين غازي صاحب حلب، و بين إخيه الأكبر الملك الأفضل نورالدين علي صاحب دمشق، و كذلك الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب مصر. وقد ذكر ذلك ابن خلكان نقلاً عن كتاب ابن شداد ((ملجأ الحكّام))[٦].

و كان بهاءالدين ابن شداد يجد في نفسه القدرة على أداء هذا الدور، كما كان واثقاً أن أبناء اسرة بني ايوب سبصغون الى توجيهاته، رغم أنهم لم يكونوا في مستوى المسؤولية، فلم يغلبوا المصلحة العامة، و القضيّة التي وحّدتهم، بل آثروا (فضلوا) مصالحهم الشخصية على كل إعتبار.

(5) Lane-Poole, Stanley, Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, London, 1914. p. VI.

رغم اني لا اذهب هذا المذهب، لأن الكتاب الّفه بلغة مناقبية نظراً لاعجابه المغرط بالقائد، حتى انه لم يسم الاحداث بأسمائها، أحياناً. كما ان المؤلف ظهرت بين سطوره ألفاظ الاعجاب بذاته، و كأنه أراد أن يُخلّد نفسه بتأليفه هذا. على عكس كتابات عمادالدين الكاتب و القاضي الفاضل، و كانا من بلغاء و كبار أدباء العصر.

(٦) انظر وفيات الأعيان، طبعة بيروت: ٨٨/٧- ٨٩.

الا أنّ إبن شداد حافظ على موقعه و وجاهته، ولهذا نرى ان الملك الظاهر شهاب الدين غازي، الذي عُدَّ اكثر اولاد القائد حكمةً ورزانة و تقديراً لدور و موقع العلم و العلماء، يعيّنه-بعد وفاة والده قاضياً على حلب و مشرفاً على أوقافها.

بهذا الصدد يذكر ابن خلكان ان حلب كانت تفتقر الى مدارس جديرة بها، ولم يكن بها من رجالات العلوم الانفر يسير، فما كان من بهاءالدين ابن شداد إلا و بدأ بتغيير ملامح المدينة و اوضاعها الفكرية، و ترتيب أمورها فعمرها و جمع فيها الفقهاء.

والواقع أن ابن شداد قضى فترة طويلة من حياته في خدمة الملوك، سواء في ذلك ملوك الموصل الأتابكه، او خدمة السلطان صلاح الدين يوسف و اولاده، كما انه خدم الخلافة العباسية، ولاسيما و انه لم يتزوّج، فلم ينشغل بأمور الاسرة و الاولاد. فتوفرت بذلك لديه ثروة وافرة، عمر بها مدرسة على نفقته لتدريس الفقه على المذهب الشافعي بالقرب من باب العراق في مدينة حلب، قبالة مدرسة الملك العادل نورالدين محمود ابن الملك الأتابك عماد الدين زنكى. يقول ابن خلكان: رأيت تاريخ عمارة هذه المدرسة مكتوباً على سقف المسجد، في الموضع المعد لالقاء الدروس، و ذلك في سنة إحدى و ستمائة[٧].

كما بنى الى جانبها داراً للحديث، و أعدّ بين المدرسة و بين دار الحديث تربة (قبراً) ليدفن بها، و للتربة بابان، باب يفضي الى مدرسة و باب الى دار الحديث، و شبّا كان متقابلان.

ومنذ أن إستقر القاضي ابن شداد في هذه المدينة و بنيت فيها منشآت أوعز الى بنائها الملك الظاهر غازي، أصبحت للمدينة منزلة علمية تجذب إليها طلاب العلم، و كان ابن خلكان أحد الذين جذبتهم حلب، و ليتتلمذ على القاضي في مدرسته، فيذكر: كان بين والدي (والده محمد بن خلكان)، و بين القاضي ابي المحاسن يوسف (بن شداد) مؤانسة كثيرة و صحبة صحيحة المودّة من زمن إشتغالهما بالموصل، فجئت اليه (الى

(٧) وفيات الأعيان: ٨٩/٧.

ابن شداد) و كان أخي[٨] قد سبقني بمدّة، و كتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفرالدين كوكبوري بن علي بن بكتكين-رحمهُ الله- رسالة بليغة في حقّنا الى ابن شداد يقول فيها: انت تعلم مايلزم من أمر هذين الولدين و انهما ولدا أخي و ولدا أخيك، ولاحاجة مع هذا الى تأكيد وصيّة.. و أطال القول في ذلك.. فتكرّم القاضي و تلقّانا بالقبول و الاكرام.. و أنزلنا في مدرسته و رتب لنا أعلى الوظائف... ولم نزل في مدرسته الى ان وافاه الأجل[٩].

ذكرنا ان هذا القاضي قد إضطلع بدور مشرّف في المصالحة و التوفيق بين أفراد البيت الأيوبي، البيت الذي سرعان ما تمزّق بعد رحيل صلاح الدين يوسف و خاصة بعد وفاة الملك العادل سيف الدين ابي بكر ايوب، سواء في مصر او في الشام او غيرهما، فما فتيء النزاع ينشب بينهم، الا و يسرع-القاضي- فيسافر بين حلب و القاهرة و دمشق و غيرها، لتحقيق هدف توحيد صفوف الاسرة، و كان يؤدي واجبه هذا حتى في الأمور الخاصة. فحسب ما ذكره انه وفد على القاهرة في مثل هذه المهام في الاعوام: ٥٩٣هـ/١١٩٧م، ٦٠٨هـ/١٢١١م، ٦١٣هـ/١٢١٦، و ٦٢٩هـ/١٢٣٢م.

حافظ ابن شداد على مكانته العلمية و الاجتماعية و ظلّت كلمته نافذه و رأيه مسموعاً في عهد خليفة الملك الظاهر شهاب الدين غازي، إبنه الملك العزيز صاحب حلب. ولما خطب هذا الملك إبنة الملك الكامل محمد صاحب مصر، اي إبنة ابن عم والده، كان إبن شداد على رأس الوفد الذي سافر الى القاهرة عام ٦٢٥هـ/١٢٣٢م لاحضار العروس و مرافَقَتِهما الى حلب.

إلا أن عجز الشيخوخة كان له بالمرصاد، فأصابه وهنٌ و ضعف شديد، فأوصى المحيطون به أن يلزم مكاناً دافئاً و يتدثّر ليحمي نفسه، و صار لا يغادر هذا المكان إلا عند الحاجة و لأداء فريضة الصلاة، و ليلقي وهو في دثاره-شتاءً دروسه على زوّاره، ولاستقبال أصدقائه، وكان ضمن زوّاره- في تلك الايام-الشاب القادم من اربيل، ابن خلكان، كما ذكرنا، فأرّخ هذا في كتابه الثمين (وفيات الأعيان) إحدى أطول التراجم ((ژياننامه))، و قدّم صورة عيانية و مؤثرة لهذا الشيخ الذي أضناه العمر و المرض و الرحلات، بقوله: كنا نتردّد اليه في داره، و نسمع عنه الحديث، في قبّة شتوية خاصة به يجلس فيها، لأن الهَرم كان قد أثر فيه حتّى صار كفرخ الطائر من الضعف و الهزال لايقدر على الحركة حتى لأداء صلاته إلا بمشقة. كما كان تعتريه النزلات في دماغه، و لهذا لم يكن بمقدوره مغادرة قبّته. و إضافة الى هذا كان يحتمي شتاءً بمنقل كبير لاتنطفيء ناره، و يتدثّر بثياب سميكة و تحته طراحة، بحيث كنا نشعر عنده حرّاً ((وهو لايشعر به لكثرة إستيلاء البرودة عليه من الضعف)) ثم صار لا يخرج لاداء صلاة الجمعة إلا إضطراراً في شدة القيظ. و إذا قام الى الصلاة، بعد جهد جهيد، يكاد يسقط، و يضيف تلميذه إبن خلكان-وهو يشاهده أمامه- لقد كنتُ أنظر الى ساقيه، حين يقف لأداء الصلاة، و كأنهما عودان رقيقان لا لحم عليهما[١٠].

زادت متاعب ابن شداد بمرور الايام، حتى لم يعد يجالس أحداً في أمرما، و ظهر عليه الخرف ((فقدان الذاكرة))[١١]، فصار لا يعرف زوّاره. و إستمر على هذا المنوال، حتى مات في ١٤ صفر سنة ٦٣٢هـ/ تشرين الأول ١٢٣٤م، و دُفن في التربة التي أعدّها لنفسه في مدرسته المذكورة، ((و حضرتُ الصلاة عليه و دفنِه))[١٢].

---

(٨) انظر بحثنا: خەلەكانىيەكان، گۆڤارى زانكۆ، هەولێر، ژمارە (٢٤)، ٢٠٠٥.

(٩) وفيات الأعيان: ٩٠/٧.

(١٠) وفيات الأعيان: ٩١/٧.

(١١) او ما يسمّى الآن ((الزهايمر)).

(١٢) وفيات الأعيان: ٩٧/٧.

من تآليفه الأخرى:

١- ملجأ الأحكام عند إلتباس الأحكام (في مجال القضاء) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة، في مجلّدين.

٢- دلائل الأحكام. تكلم فيه ابن شداد عن الأحاديث التي تمّ إستنباط الأحكام منها. في مجلّدين مخطوط بالمكتبة الوطنية في باريس، رقم ٧٣٦.

٣- دروس في الحديث. مخطوط بمكتبة بودليان في اوكسفورد.

٤- كتاب العصا ((المقصود موسى و فرعون)، مخطوط بمكتبة پانتا Panta في رضا رامپو-بالهند.

٥- فضائل الجهاد. مخطوط بمكتبة كوپروللو-باستانبول- رقم ٧٦٤.

٦- أسماء الرجال الذين في كتاب (المهذّب) لابراهيم الشيرازي (ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م) مخطوط بمكتبة ولي الدين جارالله-دمشق. رقم ٢٥٥.

٧- كتاب (الموجز الباهر) في الفقه[١٣].

بعد وفاته تحوّلت داره الى خانقاه للصوفية، لانه لم يكن له وارث. ولازم الفقهاء و القرّاء تربته، مدة طويلة.. وكان يتم ختم القرآن على تربته كل ليلة يقول ابن خلكان فارقتُ حلب متوجّها الى الديار المصرية سنة ٦٣٥هـ/ شتاء ١١٣٨م، و الأمور جارية (مستمرة) على هذه الأحوال، ثم تغيّرت الأمور، و انتقضت قواعدها ثم زالت.

(١٣) هكذا نجد ان كتبه كلها لم يتم نشرها، و بقيت محبوسة على شكل مخطوطات في رفوف مكتبات مبثوثة في العالم بين استانبول و باريس و اكسفورد و الهند و دمشق، مما يدل-كما نرى- على انها لا تتّسم بأهميتها، عكس الحال مع (النوادر السلطانية) في سيرة صلاح الدين الذي تم تحقيقه و طبعه مرات عديدة، كما ذكرنا.

ابن شدّاد يكتب سيرة صلاح الدين يوسف

لايمكن أن يختلف إثنان على أن كتاب القاضي بهاءالدين يوسف ابن شداد يعدّ أهم ما صُنف في سيرة القائد الكبير، و هو الكتاب الوحيد الذي اكسبه الشهرة الواسعة، و وضعه في مصاف كبار المؤرخين المسلمين في الحروب الصليبية، لأنّه أرّخ سيرة أعظم قائد أنجبته تلك الحروب طيلة القرنين اللذين إستغرقتها تلك الحادثة التي عُدّت أحد اشهر ثمار العصر الوسيط المرّة.

لقد قّسّم المؤرّخ كتابه الى قسمين:

الاول منهما: خصّه للحديث عن مولد صلاح الدين يوسف، و أوصافه و مزاياه. وقد اعتمد في ذكر شمائل القائد على صحبته له عن قرب، و كذا على ما نقله من ثقاة رجال العصر، و لهذا فان ما كَتَبَهُ عن الفترة السابقة عن إلتحاقه بركب صلاح الدين ليس إلا ما نقله عن أشخاص موثوقين، ممّن يقارب شهود العبان، اي أن كتابته في هذا القسم-الاول- ليست من مشاهداته، بل من معاينات رجال عصره ممّن، إتصفوا بصدقهم و أمانتهم، حسب ما اعلنه هو.

اما القسم الثاني فهو ما دوّنه هو بقلمه عما شاهده بأمّ عينيه لصحبته لصلاح الدين يوسف، منذ أن إلتحق بركبه، بُعيد استرداد القدس في ٥٨٣هـ/ تموز ١١٨٧م الى لحظة مفارقته الحياة في دمشق.

وكان هذا القائد قد عيّن الرجل قاضياً لعسكره، فلم يفارق صحبته، و لهذا صار شاهد عيان على الاحداث. ففي (وقعة الرمله)[١٤] حصل إشتباك مع الصليبيين إثر خروج السلطان للصيد، فحاول الصليبيون تعقيب تحرّكاته، و الهجوم على عسكره، فأحس بهم الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب، فصاح بالجند، فاجتمعوا، و حملوا

(١٤) هذه الوقعة ليست تلك التي حصلت سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، اي في بداية حكمه لمصر، تلك التي هزم فيها جيش صلاح الدين يوسف.

عليهم، و جرت معركة قتل فيها خلق يصفهم ((خلق عظيم و جرح جمع عظيم))[١٥]. ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسطان إسمه أرغش، فانزعج السلطان.. رغم ان العدوّ عاد الى معسكره خاسراً خائباً. و يختتم بهاءالدين ابن شداد روايته ليثبت دقة و صدق كلامه قائلاً: و هذه الواقعة لم أحضرها، فقد كنت مسافراً، وما مضى من الوقعات (الاحداث) شاهدتُ منها ما يشاهده مثلي، و عرفتُ الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور[١٦]. اي ان الأمانة تستدعي ذكر حقيقة كون القاضي المؤرخ لم يكن شاهداً على الحدث، وسمع ما حصل عبر الآخرين.

لهذا السبب-ولأسباب أخرى- عُدّ كتابه مصدراً مهما بل و اساسياً في القاء الضوء الساطع على تاريخ فترة صلاح الدين يوسف، ضمن تاريخ الحروب الصليبية، ولاسيما في سنوات هذا القائد الأخيرة، و هي مرحلة حافلة متواصلة للعمل من أجل دحر الصليبيين، او للعمل دون احتلالهم لمدن أخرى، او استرجاع مواقع خسروها في وقت سابق، ولاسيما ما يخصّ حصار عكّا.

ولاشك ان إنتصار السلطان في موقعة حطين، و استرداد البيت المقدس، أحدثا رجّة و ضجّة كبرى في اوروبا و في الكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية)، و لهذا كان ردّ الفعل كبيراً، فتقرّر ارسال حملات جديدة بقيادة كبار ملوك اوروبا، و فرض ضريبة جديدة على المواطنين سميت بـ(ضريبة صلاح الدين Saladin Tax)) و كانت هذه الحملة هي الثالثة وقد قادها من الملوك فريدريك باربا روسا ((فريدريك ذو اللحية الحمراء)) امبراطور المانيا، و ريجارد قلب الاسد ملك انكلترا، و فليب اوكَست ملك فرنسا، واحتدم القتال العنيف بين جيوش هذه الحملة و جيش صلاح الدين يوسف. ثم انتهى- مرحلياً- رعقد صلح الرملة بين الطرفين، او بالأحرى بين السلطان و بين الانكتير (ملك انكلترا).

(١٥) من مبالغات مؤرّخي الأحداث، وقد إعتاد قُرّاء كتب التاريخ على قراءة مثل هذه الروايات.

(١٦) النوادر، ص: ٢٠٨.

لقد قدّم بهاءالدين ابن شداد صورة حيّة للأحداث و المعارك، و لأدوات القتال، فنجد في كتابه مصطلحات حربية هامة تفيد في دراسة التاريخ العسكري، كما كان حالنا في دراستنا لجيش هذا القائد، ولاسيما في ذكر انواع الاسلحة و السفن و أدوات الحصار و أجهزة حماية جسم المقاتل و جسم فرسِهِ، رغم ان الرجل لم يكن عسكرياً، فوصف آلات الدبابة و الكبش و السنّور و البرج ذي الخرطوم، و الدبابة ذات الأبراج الاربعة، كما ان كتابه يفيد الباحثين في دراسة جوانب من اوضاع المسلمين و الصليبيين الاجتماعية و الادارية..الخ، فقد اشار-على سبيل المثال- الى تقاليدهم في التشاور و التحكيم، فيعلن: ان من عاداتهم انهم يتشاورون في امور الحرب و إتخاذ القرارات على ظهور الخيل، و انهم حكّموا-ذات مرة- عشرة أنفس منهم، فاي قرار يتّخذونه بنفذونه، ولا يخالفه أحد منهم.

و واضح أن أمراً كهذا قد تناهى الى سمع مؤرخنا لقربه من مواقع الأحداث، او أنه قد إستقاه ممّن شاهدهم عن كثب، و المهم في الأمر-كما نرى- ان ابن شداد لم يشأ أن يهمل شأن الجانب الآخر جانب العدو، لذا دوّن أخبارهم، ولم يعتبر ذلك أمراً خاطئاً، أو انه بمثابة إعتراف منه بالوجود الصليبي، بل ان موقفه هذا دعاه الى ذكر بعض محاسنهم بل و بسالتهم كذلك[١٧].

كما حوى كتابه على معلومات على جانب كبير من الأهمية يصل بعض منها الى مستوى الوثائق التاريخية، ولاسيما نصوص الخطابات المرسلة من (الكاغيكوس) مقدّم الارمن-حسب وصفه- او مراسلة امبراطور بيزنطه لصلاح الدين يوسف، و تفاصيل صلح الرملة، و البنود التي إتفق عليها الطرفان.

ذكرنا أن إبن شداد أفرد صفحات كثيره في مقدمة كتابه للحديث عن مزيا القائد، نبدأ بما كتبه عن.

(١٧) انظر بحثنا: بسالة و أساليب قتال الفرنجة، و فشل مشروع إحتلال الحجاز ضمن (بحوث في التاريخ الكردي) منشورات الاكاديمية الكردية-اربيل ٢٠١٢، ص ص: ٣١٥-٣٣٦.

((عدالة صلاح الدين يوسف))

يبدأ كلامه بذكر الخليفة الراشدي الأول أبوبكر (رضي الله عنه) ثم يقول كان السلطان عادلاً رؤوفاً رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي. فكان يخصص يومي الاثنين و الخميس من كل اسبوع للجلوس مع طالبي العدالة و الانصاف، و يحضر معه الفقهاء و القضاة و العلماء، و يفتح الباب للمتحاكمين، حتى يصل إليه كل أحد من كبير و صغير، و عجوز هرمة و شيخ كبير. وكان يفعل ذلك سفراً و حضوراً و هذه الرواية لها قيمتها للباحث في النظام القضائي في عصر بني أيوب.

لم يكن السلطان يرفض طلباً يُعرض عليه لتحقيق العدالة، بل يقبل الطلب او الشكوى عن طيب خاطر، ثم يعلن نتيجة ما توصل اليه من نتائج في التحقيق عن المظالم لمعونة رجال الفقه و القضاة، كل يوم.

ويبدو ان الظلم يتواصل حتّى أثناء إحترم القتال مع قوة أجنبية غازية. و الانسان المجبول على الشّر لايكفّ عن ممارسة شرّه و ظلمه. بل ربما تزدا وتيرة أعمال التعسف أثناء الأزمات و حالات الاحتراب، مستغلين إنشغال رأس الدولة و قيادتها و أجهزتها بمهام القتال وضعف الرقابة، إن، نقل غيابها.

لهذا إقتضى من قائد مثلّ صلاح الدين، ومن هم على غراره، أن يقضي بعض اوقاته للنظر في المظالم و هذا دليل ليس على قوة نظام القضاء او نظام النظر في المظالم، بل على ضعفه. فكان لابد للقائد –حتى في اوقات القتال- ان يخصّص جزءاً من وقته لاحقاق الحق، وعدم ترك أمور كهذه بايدي أشخاص آخرين، فكان يضطرّ الى حسم مثل هذه الأمور بنفسه، ((في كل يوم)) حسب قول المؤرّخ، في وقت كانت جبهة الداخلية تعاني من ظلم من إعتاد الانسياق خلف تحقيق مصالحه الذاتية، و إلحاق الأذى بحقوق الآخرين.

لقد كان قيام صلاح الدين يوسف بهذه المهمة الشاقة بالجلوس في يومي الاثنين و الخميس في مجلس عام. وكان يحضره الفقهاء و القضاة و العلماء-حسب قول ابن شداد- و يفتح الباب للمتحاكمين، من كبير و صغير، من عجوز و شيخ، سَفَراً و حضراً[١٨]، ولاسيما في اوقات خوض المعارك، و هذا مما زاد من متاعبه، ومن ثم أثبت على عدم قدرته، او على ضعف مقدرته، على إقامة نظام قضائي منضبط، ليتفرغ هو و جيشه لادارة شؤون القتال. ولم يكن هذا القائد ونظامه مسؤولا من هذا القصور، او عن ضعف النظام القضائي، بل انه ورثه من الحكام الذين سبقوه في حكم مصر و الشام و الجزيرة، و ربما صار هذا النظام القضائي في عهده أفضل و اكثر عدالة مما كان، لكنه لم يشأ أن يترك أمر تحقيق العدالة الى الآخرين.

لقد كان صلاح الدين يوسف ينظر و يحقق في الحالات -او القصص كما يسميها ابن شداد- و يكشف نتائج ما توصل إليه، و يجمع الحالات في كل يوم، بعد أن يفتح باب العدل، ولم يرد قاصداً. ثم يجلس مع كاتبه ساعه، إما في الليل او في النهار، و يوقع على كل حالة حسب ما تقتضيه عدالته.

و الواقع ان هذا القائد لم يكن بمقدوره الانفلات من اوضاع و اوجاع عصره و العصور التي سبقته. فرغم وجود مؤسسات القضاء إلا أن الناس ظلّوا يجأرون بالشكوى لما يحصل في أروقة القضاء و أروقة مؤسسة النظر في المظالم. و إذا كان صلاح الدين قد خفّف عن كاهل المظلومين بقيامه بمسؤوليته في تحقيق العدالة بنفسه، فأن حكاماً سابقين-ولاحقين- لم يخففوا عذابات المغلوبين كما فعله هذا القائد (الكاريزما)، حتى تسرّبت أخبار عدالته الى خيام و معسكرات الصليبيين.

ومن حكايات عدالته: إستغاث اليه رجل من أهل دمشق يدعى (ابن زهير)، و اشتكى من تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه بن ايوب[١٩]، فانفذ (أرسل) اليه صلاح

---

(١٨) ابن شداد، ص٦٥.

(١٩) كان تقي الدين عمر شاهنشاه من كبار قادة بني ايوب، و اكثرهم بسالة، و يحقّ لنا ان نطلق عليه صفة (فارس الأسرة)، و هو مؤسس مملكة حماه الايوبية. وكان أثيراً (مفضلاً) لدى عمه السلطان صلاح الدين يوسف، ناب عنه في حكم مصر، ثم منحه عمه هذا حماه سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م فسكنها،

الدين من يحضره الى مجلس حكمه، و طلب مني السلطان-كما يقول القاضي بهاءالدين بن شداد- ان أشهد عليه شاهدين معروفين بنزاهتهما-حسب ما تقتضيه أصول القضاء الاسلامي.

كما وكّل ابن زهير الدمشقي القاضي أبا القاسم أمين الدين -قاضي حماه- في المحاكمة و المنازعة. فحضر الشاهدان، و أقاما الشهادة عندي في مجلسه-رضي الله عنة-[٢٠] بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة، و إنكار الخصم. فلما ثبتت الوكالة أمرتُ-كما يقول بهاءالدين ابن شداد- ابا القاسم امين الدولة- بالمساواة بينهما. ثم جرت المحاكمة بينهما. و اتجهتُ اليمين على تقي الدين عمر، و انقضى المجلس على ذلك، و قطعنا عن أحضاره دخول الليل. وكان تقي الدين من أعزّ الناس عليه، و أعظمهم عنده، لكنه لم يُحابه في الحق.

ثم يسرد القاضي بهاءالدين ابن شداد حكاية ثانية للاستدلال على إصرار السلطان يوسف على تطبيق العدالة ولو على نفسه. فيذكر قضية كان صلاح الدين طرفاً فيها مع احد تجّار بلدة (خلاط) في كردستان الشمالية (ضمن تركيا الآن). فذات يوم كنتُ في مجلس الحكم بالقدس. إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف، اسمه (عمر الخلاطي) يحمل معه كتاب حكمي طلب فتحه، فسألته:

- من خَصْمُك؟ فقال:

و مات و دفن فيها سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م. وقد ذكر المؤرخ الأيوبي اسماعيل ابو الفداء في كتابه (مختصر تاريخ البشر) قائلاً: كان الملك المظفر ركناً عظيماً من اركان البيت الايوبي، و كان عنده فضل و ادب، و له شعر جيد.

راجع ابن خلكان. وفيات الأعيان، ٤٥٦/٣. وتاريخ ابن الوردي (ذيل المختصر): ١٠٣/٢. و انظر ابراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني ايوب.

(٢٠) يقصد صلاح الدين يوسف.

- خَصمي السلطان، و هذا ما يُثبتُ مطلبي، وقد سمعنا أنّكَ لاتحابي. ((لاتنحاز الى طرف)). فقلتُ: وفي اي قضية هو خصمك؟ فقال:

إن سُنقرُ[٢١] الخلاطي كان مملوكي، ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده اموال عظمة و كلها لي، و استولى عليها السلطان، و أنا اطالبه بها. فقلت له: يا شيخ (عمر) وما دفعكَ الى هذه الغاية؟ و كيف تثبت ما تقوله؟ فقال:

الحقوق لاتبطلُ بالتأخير، و هذا الكتاب الحكمي ينطق (يثبت) بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات.

يقول القاضي المؤرخ: فأخذتُ الكتاب منه، و تصفّحتُ مضمونه، فوجدته يتضمّن ما يؤكدّ شراءه من أحد التجار ببلدة (أرجيش) و فيه تاريخ شرائه باليوم و الشهر و السنة. و أن سنقر ظل في عهدته الى أن هرب، ثم مات.

فتعجب القاضي من هذه القضية، و قال لعمر الخلاطي:

لايسعني سماع الدعوى مع وجود الخصم، و أنا أعرّفه و أعرّفك ما عنده من معلومات.

فرضي عمر بذلك، و خرج. فلمان التقيتُ بالسلطان و (المثول بين يديه) عرّفته بالقضية. فتعجب من الأمر و إستبعد ما يقوله الرجل إستبعاداً عظيماً، و قال:

كنت نظرتَ في الكتاب الذي يحملُهُ الرجل. فقلتُ: نظرتُ فيه و رأيت ما يؤكّد صحَّتَه، وروده و قبوله في دمشق وقد كتب عليه: كتاب حكمي، و شهد على يد قاضي دمشق شهود معروفون. فقال:

إذن، نحضرُ الرّجل و نحاكمه، و نعمل في القضية ما يقتضيه الشرع.

ثم جلست مع السلطان على إنفراد ((خلوة)) فقلت له:

هذا الخصم يتردّد، ولابد ان نسمع دعواه. فقال:

(٢١) يقول محقق الكتاب: سُنقُر إسم تركي-Sungur- معناه (نسر). وفي القاموس التركي يعني (باز)

أقِم عَني و كيلاً يسمع الدعوى، ثم يقيمُ الشهودُ شهادتهم، و أخّر فتحَ الكتاب الى حينِ حضور الرجل ها هنا.

ففعلتُ ذلك، ثم أحضر الرّجلُ عنده، و طلبنا منه ان يجلس بين يدي السلطان، و كنت الى جانبه، ثم نزع طراحته ((غطاء رأسه)) و قال لعمر الخلاطي:

إن كان لك دعوى فاذكرها.

فما كان من الرجل الا و أخرج كتاب الدعوى.

فأجابه السلطان:

ان سُنقُر هذا مملوكي، ولم يزل على ملكي حتى أعتْقتهُ ((حرّرتُه)) و توفي و خلّف ما خلّفه لورثته.

فقال الرجل: لي بيّنة ((إثبات)) تشهد بما أطلب ثم طلب مني السلطان ان أفتح الكتاب الذي في حوزة الرجل، ففتحتُه، فوجدتهُ كما تمّ شرحه لدى التحقيق معه فلما إطلعَ السلطانُ على تاريخ تحرير ((صدور)) الكتاب قال: عندي من يَشهَدُ أن (سُنقرُ) كان في هذا التاريخ في مُلكي و في يدي بمصر، و أني إشتريته مع ثمانية أنفس ((أشخاص)) آخرين، في تاريخ يسبق هذا التاريخ بسنة، و أنه لم يزل في يدي و ملكي الى أن أعتقتهُ (حرّرتُه).

ثم إستحضر السلطانُ جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين، فشهدوا بذلك، و حكوا القضية، كما ذكرها، و ذكروا التاريخ المذكور مطابقاً لما أعلنه. صمَتَ عمر الخلاطي، ولم ينطق كلمة.

فقلتُ للسلطان: يا مولاي، هذا الرجل ما فعل ذلك إلاّ طلباً لمراحم السلطان، وقد حَضَرَ بين يدي مولانا. وما يُحسن ((لا يُعقل)) أن يرجع خائب القصد.

فقال السلطان: هذه مسألة أخرى.

فتقدم له بخلعة و نفقه بالغة، لم أعرف مقداره.

ويعلّق القاضي بهاءالدين ابن شداد على ما حصل قائلاً.

فانظر الى ما في هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة، من التواضع، و الانقياد ((الاتحياز)) الى الحق، و ترويض النفس على قبول التحكيم، و الكرم في موضع، رغم قدرته التامة على عكس ذلك، رحم الله رحمة واسعة.

ولاشك ان نبرة الاعجاب واضحه في لغة و اسلوب القاضي ابن شداد وكما يبدو فأنه ألّف كتابه في حياة القائد. فيذكر في ختام كتابه مايشير الى ذلك نصّاً:

((هذه أخبار الملك الناصر ابو المظفر يوسف بن ايوب-رحمة الله عليه- فرغتُ من جمعها يوم وفاته... و قَصْدتُ بذلك وجهَ الله تعالى في حثّ الناس على الترحم عليه، و ذكر محاسنه، والله يحسن خلافته من بعده، و يجزيه ما هو أهلُه، بمحمد و آله، وحسبنا الله و تعم الوكيل.

يعلق محقق كتابه أحمد ايبش على النص المذكور بقوله:

((هذا نص هام يشير الى التاريخ الذي فرغ فيه المؤلف من تصنيف كتابه هذا. و إن كان-كما رأينا- قد تابع فيه بالتعديل و الاضافة الى ما بعد هذا التاريخ بـ٣٧ عاماً، كالترحّم على بعض افراد البيت الايوبي ممّن وقعت وفاتهم متأخرة، في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي (اي بعد رحيل صلاح الدين). ثم رأينا المؤلّفِ (ابن شداد) وهو يذكر القدس الشريف بعبارة ((يَسّرَ اللهُ فَتحها)) مما يدلّ على ان هذه العبارة كُتِبتْ في عام (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) او بعده و كانت القدس قد سلمت في هذا العام للاّتين (الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية)، بموجب معاهدة سلام بين الملك الكامل (ابن الملك العادل ابوبكر، اخو صلاح الدين يوسف) و بين الامبراطور فريدريك الثاني ملك المانيا و قائد الحملة الصليبية الخامسة و بقيت القدس في أيدي الفرنجة (١٥) عاماً، الى أن انتزعها من أيديهم المقاتلون الخوارزميون عام ١٢٤٤م، (الذين تركوا بلادهم خوارزم تحت وطأة الهجمات المغولية بقيادة جنكيز خان نفسه، و التجأوا الى كردستان الشمالية يقودهم ملكهم الاخير جلال الدين مونكوبرتى بعد ان اجتازوا بلاد فارس و العراق، و تشتتوا شذر مذر)[٢٢].

(٢٢) أنظر بحثنا ((كۆژرانى دوا سولّتانى خوارزم بەدەست كوردێك)) له گۆڤارى كۆليجى ئاداب. ژماره ١٩٧٦/٩.

قلنا نبرة الاعجاب و التعاطف واضحة في ألفاظ القاضي المؤرخ، بسبب إكمال كتابه بعد رحيل القائد المُلهم، ونظراً للعلاقة الحميمة التي ربطت بينهما. و لتأكيد هذه العلاقة نذكر هذا الحادث الذي أعقب وصول حجاج السنة الاخيرة من حياته اي سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) وكان القاضي في القدس، ((فوصله كتاب من السلطان يَستدعيه إلى خِدْمَتِه، وكان شتاءّ شديداً موحلاً)). فتحرك ابن شداد من القدس و توجه نحو دمشق و فيها السلطان و إبنه البكر الملك الأفضل نورالدين علي، و في خدمته خلق من الأمراء و أرباب (أصحاب) المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته. قلمّا علم بوجودي إستحضرني و كان لوحده، و قبَلَ أن يَدخل عليه أحد فدخلتُ عليه-رحمة الله عليه- فقام و لقيني ملقىً ما رأيتُ أشدَّ من بشره فيه، ولقد ضمّني اليه و دمعْتَ عينه، رحمة الله عليه.

يعلق محقق الكتاب على هذه المواقف الانسانية التي بدت من شخص صار أحد عظماء التاريخ، وقد فرض هيبته على أصدقائه و أعدائه و خصومه معاً، مع شعور يمتزج بكل الاكبار والانبهار لشخصيته الكريمة النبيلة.. هذه الاخلاق سَمَتْ بصاحبها الى مصاف الصدّيقين و الصحابة الكرام، ولوكان في الاسلام قدّيسون لعدّ السلطان صلاح الدين يوسف في اولى مراتبهم بلامنازع.

ان حب بهاءالدين ابن شداد لصلاح الدين يوسف الممزوج بالاحترام و تقدير مواقفه الباسلة، لايمكن ألا ينعكس على كتاباته، لكن هذا الحب لم يغش بصيرته عن قول الحقيقة، او يجعله لايذكر إلاّ مناقبه و شمائله. بل كان واعياً لما يحصل و يكتب ماحصل ببراع لاتشوبه شائبة، نزيها لايجاريه أحد في نزاهته، فحّب المؤرخ الحصيف لقائد ما لايعني التغطية على أخطائه و عيوبه، وربما كان قلم ابن شداد اكثر نزاهة و بسالة من بعض مؤرخي زماننا هذا، الذين يلوون عنق الحدث لكيلا يقولوا الحقيقة، و جعلوا التاريخ مجالاً للارتزاق او التكسب، و مجاملة القادة بشكل مخل، يخل بالتاريخ، و بمعرفة ما حصل في واقع الامر، عندها تختفي الحقيقة و تحلّ محلها صورة شائهة، لأن هذا المؤرخ قبض ثمن تزويره للاحداث من الطغاة الزائلين حتماً. وقد يغدو أمر الوصول الى الحقيقة-عندئذ- شاقاً.

شيء من كرم صلاح الدين يوسف

يبدأ القاضي ابن شداد إشادته بكرم هذا القائد ذكر حديث نبوي عن الكريم مفاده ان الله يأخذ بيد الكريم اذا تعثر. ثم يعلن-القاضي-: ان الحديث عن كرم صلاح الدين يوسف أظهر من أن يسطّر، و أشهر من أن يذكر، و يروي عمّا أجمعت عليه المصادر، عن تركته التي لايتصوّرها العقل لأنها كانت من النزر اليسير. فحين توفي لم يجدوا في خزانته من الفضة الاسبعة و اربعون درهماً، ومن العملة الذهب لم يعثروا سوى على دينار واحد صوري[٢٣]. رغم انه ملك من الممتلكات شملت مصر و الشام و بلاد الجزيرة الفرانية، و اليمن و ولاية برقة ((شرقي ليبيا)).

ومما يذكر انه حين فتح آمد ((دياربكر)) طلبها منه ابن قره أرسلان، فأعطاه إياه.

ولكن بعض مظاهر الكرم عند صلاح الدين يوسف، التي يتحدّث عنها القاضي المؤرخ تُظهره بمظهر المسرف في التصّرُف بالأموال في ظرف كانت دولته المترامية الاطراف أحوج ماتكون إليها، ولاسيما و المعارك ظلت مندلعة طيلة حياته، حتى عقدت معاهدة الرملة بين الطرفين قبل أشهر من وفاته.

ومن تلك المظاهر-وكانت ضمن مشاهدات المؤرخ- قوله: رأيتُ السلطان وقد إجتمع عنده جمع من الوفود القادمة الى القدس الشريف، وكان قد عزم على التوجّه الى دمشق. ولم يكن في الخزانة ما يقدّمه للضيوف، فاضطر الى الاسراع الى بيع أشياء من بيت المال، و قسّمنا ثمنها عليهم ولم يفضل من المبلغ درهم واحد.

---

(٢٣) الدينار الصوري: ما ضُرب في مدينة صور، في جنوبي لبنان ايام الدولة الفاطمية التي حكمت مصر و بلاد الشام، عن هذا الدينار المصري، انظر كتاب: منصور بن بعرة الذهبي الكاملي" كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية. طبعهُ عبدالرحمن فهمي، القاهرة، ١٩٦٦.

وهنا يصل كرمه حد التفريط بالمال فيقول مؤرخه: كان-رحمه الله- يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة ((حال الترف)). و يضيف: وكان نواب خزانته يخفون عنه بعض الأموال إحتياطاً و حذراً أن تفاجئهم مهمة او حاجة، لعلمهم انه-اي السلطان- متى علم بوجود مال أخرجه(!).

يقول القاضي: سمعتُ منه يوماً يقول في معرض حديث جرىَ: ((يمكن أن يكون في الناس من ينظر الى المال كمن ينظر الى التراب)) فكأنه أراد بذلك نفسه.

وكان يعطي فوق ما يؤمّله الطالب، وماسمعته قط يقول: ((أعطينا لفلان)). وكان يعطي الكثير، و يبسط وجهه للمُعطى إليه ((لطالب المال) بسط مْن لم يُعطه شيئاً... ولما عرف الناسُ طبع السلطان و كرمه صاروا يطلبون المزيد منه، وما سمعته قط يقول: قد زِدتُ مراراً، فكم أزيد؟))

و اكثر رسائل طالبي المال كنتُ أنا من يكتبها، وكنت أخجل من كثرة مايطلبونه منه، لكني لم أخجل من كثرة الطلب منه، لعلمي بعدم مؤاخذته ((بعدم إمتناعه عن الدفع)). وما خدمَهُ قطّ أحد إلا و أغناه عن الطلب من غيره.

أما عَطاياه و صنوفها فلايمكن معرفة مقدارها... و سمعتُ من صاحب ديوانه يقول لي: حصرنا عددَ ما وهبَ من الخيل أثناء حصار الفرنجة ((الصليبيين)) لعكا فكان تعدادهُ عشرة الاف فرس (وهذا رقم مبالغ فيه.

ويختتم بهاءالدين ابن شداد كلامه في كرم هذا القائد بالدعاء له: اللهم، إنك الهمتَهُ الكرم، و أنت أكرم منه، فتكرّم عليه برحمتك و رضوانك يا ارحم الراحمين[٢٤].

(٢٤) ص٢٧، مع بعض التصرف الضروري.

شجاعته – قدّسَ روحَه

كعادته يبدأ القاضي بحديث نبوي في الاشادة بصفات الرجل لينسجم ما يذكره مع مناقبه التي جمعها عنه خلال صحبته مع القائد. فيقول: روي عن النبي-صلعم- قوله ((إن الله يحبُّ الشجاعة ولو على قتل حيّة)).

ولقد كان-رحمه الله تعالى- من عظماء الشجعان، قويّ النفس شديد البأس، عظيم الثبات، لايهوّله أمر، ولقد رأيته-رحمه الله- مرابطاً في مقابلة عدَّة عظيمة من الفرنج، في وقت كانت نجداتُهم تتواصل، و عساكرهم نتواتر ((تستمر في الوصول))، وهو ((صلاح الدين)) لايزداد الا قوة نفس و صبر، فوصل في ليلة واحدة اكثر من سبعين مركباً ((سفينة)) الى عكا لمحاصرتها، في حصارها الطويل الذي دام اثنين و عشرين شهراُ و يضيف القاضي المؤرخ: وانا اعدّ تلك المراكب بدءاً من صلاة العصر الى غروب الشمس، و السلطان لايزداد إلا قوّة نفس، ولقد كان-رحمه الله- يعطي دستوراً ((إجازة)) لمقاتليه طيلة فصل الشتاء، اما هو فكان يبقى في شرذمة يسيرة ((عدد قليل)) في مقابلة العدو و عدّتهم الكثيرة.

وقد سألت باليان بن بارزان-وهو من كبار ملوك الساحل الشامي- وهو جالس بين يدي السلطان-رحمه الله- يوم التوقيع على صلح الرملة- عن عدّتهم، فقال الترجمان عنه إنه يقول:

((كنتُ أنا و صاحب صيدا[٢٥] وكان من ملوكهم و عقلائهم-قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحازرناه- قدّرنا او خمّنّا عددهم- فحزره هو بخمسمائة الف، و حزرتهم أنا بستمائة الف فقلتُ: فكم هَلَكَ منهم؟ فقال:

((اما بالقتل فنحوَ مائة الف، واما بالموت (الطبيعي) فلا أعلم، وما رجع من العدد المذكور-من نحو ستمائة الف- الاقليل)) رغم مافي ذكر هذه الأعداد من مبالغة

(٢٥) هو (رينو كارينيه Renaud Garnier) صاحب صيدا و صاحب شقيف أرنون (١١٧١-١١٨٧م) في جنوبي لبنان، حالياً.

واضحة. وكان لابد للسلطان من أن يطوف حول العدو الذي يحاصر عكّا، في كل يوم مرّة او مرّتين، إذا كنا قريباً منهم.

وكان-رحمه الله تعالى- إذا إشتدّ القتال يطوف بين الصفين و معه أحد الشبان و على يده جنيب[٢٦]، و يخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة، و يرتب الأطلاب[٢٧]، وبأمرهم بالتقدّم و الوقوف في مواضع يراها. وكان يشارف (يقترب من) العدو و يجاوره، رحمة الله.

ولم أره يوماً يستكثر العدوّ أصلا* ولا إستعظم شأنهم قط. و مع ذلك كان في حال الفكر و التدابير، تقف بين يديه الأقسام ((المراتب العسكرية)) كلها، و يرتب على كل قسم مقتضاه من غير عصبية او غضب يعتريه.

ولقد إنهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا، حتى القلب (قلب الجيش) و رجاله و وقع (سقط) الكوس[٢٨] و العلم[٢٩] من أيدي رجاله. و السلطان (رضي الله عنه) ثابت القدم و معه نفر يسير من مقاتليه، إنحاز الى الجبل، حيث فرّ نحوه رجاله، و صار يردّهم و يخجّلهم حتي يعودوا الى ساحة المعركة، واستمر على العدو في ذلك اليوم، و قتلوا منهم زهاء سبعة الاف مابين فارس و راجل(!).

ولم يزل السلطان مصابراً، مرابطاً حول عكا، و العدو في العُدّه الوافرة، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين. فاضطرّ الى مصالحتهم لشعوره بالمسؤولة تجاه ما حصل، بسبب ضعف قدراتهم، لعدم وصول النجدات إليه، عكس ما كان متوقعاً، وكانت المصلحة في الصلح[٣٠]، وظهر ذلك لما أراده القضاء و القدره.

وكان-رحمه الله- يمرض و يصحّ، و تعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط، و تتراءى النيران[٣١]، و نسمع منهم صوت الناقوس[٣٢]، و يسمعون منا صوت الأذان الى أن إنقضت الوقعة على أحسن حال و أيسره[٣٣].

---

(٢٦) الجنيب: جواد إحتياطي يسيّره القائد الى جانبه لركوبه حين يقتل جواده، او حين كبوته (سقوطه).

(٢٧) الاطلاب. لفظ كردي- حسب ماتذكر المصادر، جمع طلب اطلق في العهد الايوبي على الامير الذي يرأس مائتى فارس. د. حسان حلاق، د. عباس صباغ. المعجم الجامع في المصطلحات. الايوبية و المملوكية و العثمانية. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٩٩، ص١٤٧.

* ربما اعتبر عدم الاستكثار بالعدو (او الاستهانه به و بعدده و عدّته) خطأ من أي قائد، و الثقة المفرطة بالنفس قد لاتكون سبباً لاحراز النصر. و يقصد القاضي المؤرخ هنا حادث حصار عكا الذي إنتهي باحتلال الصليبيين لها، و قتلهم نحو ثلاثة الاف من المقاومين المسلمين داخل المدينة انظر كتابنا: عن (جيش صلاح الدين).

وقد عرّف الدكتور محمد مصطفى زيادة في هامش (٢) ص (٢٤٨) من كتاب المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك. و عدّل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة. Batallion بالفرنسية و انظر: ابن واصل مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ٥٩/٢ هامش ٣.

(٢٨) الكوس: صفائح من نحاس يشبه الترس الصغير يدق الكوسي أحدهما على الاخر بايقاع مخصوص و هذا شبيه بموسيقى الجيش.

(٢٩) المعروف ان علم صلاح الدين كان أصفر اللون، وفي وسطه صورة نسر أحمر.

(٣٠) يشير القاضي بهاءالدين ابن شداد الى صلح الرملة الذي عقد بين الطرفين في شعبان عام ٥٨٨هـ/ايلول، و وقّع من الجانب الصليبي ملك انكترا المعروف ريتشارد قلب الأسد (ريچارد شيّردل)، قائد الحملة الصليبية الثالثة، عقب (بعد) إنتكاسات عديدة أصابت جيش المسلمين، تمثّلت في سقوط عكا المدوّي، ثم معركة أرسوف في ساحل فلسطين، و في معركة يافا، على التوالي.

(٣١) يقصد نار الطرفين المتقابلين، الأيوبي و الصليبي.

(٣٢) وكان يقرع إيذاناً بأداء الواجب الديني لدى الصليبيين، في اوقات محددة.

(٣٣) القاضي المؤرخ يقصد: ان الصلح الأخير لم يتضمّن أي بند فيه تنازل من الجانب الاسلامي الى الجانب الصليبي، بل كان صلحاً مشرفاً لم ينقص من كرامة الامة، او يتنازل عن ممتلكاتها او مقدساتها على الاطلاق. ((حسب تفسير احمد أيبش)). مقدمة النوادر ص:٧٥. أما نحن فلا نرى الأمر بهذه الصورة الوردية. د.محسن.

اشادات مؤرخه بجهاده

قال الله سبحانه و تعالى:

((والذين جاهدوا فينا لنهدينّهُم سُبُلَنا. و أن اللهَ لَمَعَ المحسنين))[٣٤].

لقد كان -رحمة الله- شديد المواظبة (الدوام) عليه، عظيم الاهتمام به، ولو حَلَفَ حالفٌ أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد، او في الإفاد (العطاء) لصدق و برّ في يمينه.

ولقد كان الجهاد و حبّه و الشغف به قد إستولى على قلبه و سائر جوانحه إستيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديثٌ إلا فيه، ولا نظرٌ إلا في آلته، ولا إهتمام إلا برجاله، ولا ميلٌ الا إلى من يذكره و يحثّ عليه، ولقد هجر في محبّة الجهاد في سبيل الله أهله[٣٥] و اولاده و وطنه[٣٦] و سكنه و سائر ملاذه (بلاده) وقنع من الدنيا بالسكن تحت ظل خيمة مهلهلة تهب بها الرياح يمنة و يسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة عاصفة على مرج عكّا، فلو لم يكن في البرج-بعيداً عن الخيمة- لقتلته، ولايزيده ذلك إلا رغبة في الجهاد، و مصابرة و إهتماماً[٣٧].

(٣٤) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣٥) لم يهجر أهله، تزوج مراراً و أنجب العديد من الاولاد و سنتحدث عن ذلك في موضع آخر (د. محسن).

(٣٦) لا أظنه يقصد بلاده بلاد الكرد (كردستان)، و على الاكثر يقصد مصر حيث تملكها نحو ربع قرن، و ولد فيها عشرة من اولاده الذكور في الاقل، كما انه يقصد بلاد الشام حيث ملكها نحو تسعة عشرة سنة (د. محسن).

(٣٧) يعلق محقق كتاب ابن شداد على حياة الزهد التي إستمرأها هذا القائد العظيم بقوله: هذا هو سلطان مصر و الشام و الجزيرة (الفراتية) و الموصل و بلاد النوبة (جنوبي مصر و شمالي بلاد السودان) و (اليمن)، قاهر مملكة اللاتين (الدول الكاثوليكية في غربي و وسط اوروبا) و جيوشها، و فاتح القدس الشريف، يكتفي بخيمته مسكناً، و بالجهاد منهجاً و شرفاً، فيجد في ذلك العزّ و الرفعة

وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب اليه يحثهُ على الجهاد، او يذكر له شيئاً من أخبار الجهاد، ولقد ألّفت له كتبٌ عدة في الجهاد، و انا-يقول ابن شداد- ممّن جمع له فيه كتاباً، وهو كتاب ((فضائل الجهاد)) جمعتُ فيه آدابه، و كلّ آيه وردت فيه[٣٨]، وكل حديث روي فيه، و شرحتُ غريبها، وكان-رحمة الله- كثيراً ما يطالعه، حتى أخذه منه و لده الملك الافضل نورالدين علي.

ولأحكين عنه ما سمعته منه

فحين إستولي على حصن كوكب، في ذي القعدة سنة اربع و ثمانين هجري/ كانون الثاني ١١٨٩م، و أعطى العساكر دستوراً[٣٩] و أخذ عسكر مصر في العودة الى مصر، و كان يقوده أخوه الملك العادل ابوبكر بن ايوب-رحمه الله- فسار معه ليودّعه و يحظى بصلاة العيد في القدس الشريف-حرسه الله تعالى- و سرنا في خدمته.

ولما صلى العيد في القدس وقع له (فكّر) أن يمضي معهم الى عسقلان، و يودّعهم فيها، ثم يعود على طريق البلاد الساحلية الى عكا، و يرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لايفعل، فأن العساكر قد فارقتنا و بقينا في عدّة ((أعداد)) يسيرة، و الفرنج (الصليبيون) اجتمعوا بمدينة ((صور)) و هذه مخاطر عظيمة، لكن السلطان لم يلتفت- رحمه الله- و ودّع أخاه و العسكر بعسقلان.

ثمّ سرنا في خدمته على الساحل طالبين عكا، وكان الموسم شتاءً عظيماً و البحر هائجاً هيجاناً شديداً، و موجه كالجبال كما قال الله تعالى[٤٠]. و كنت حديث عهد برؤية

و الاباء، و يخلف وراءه كل من سياتي بعده لقرون تتوالى، لاتطال هاماتهم أدنى أعتاب مجده، رغم اموالهم و قصورهم و أباطيل إدعاءاتهم.

(٣٨) في القرآن الكريم أربعون آية في الجهاد. (د. محسن)

(٣٩) مهلة او فرصة بسبب حلول موسم الشتاء، حيث كانت المعارك تخف و طأتها، فيمنح محاربي جيشه دستوراً ليعودوا الى أسرهم و مصالحهم. (د. محسن).

(٤٠) وهي تجري بهم في موج كالجبال. سورة هود: ٤٢.

البحر[٤١]، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل إلى أنني لو قال لي قائل: إن خُضتَ في البحر ميلاً واحداً ملكتكَ الدنيا، لما كنت أفعل و استسخفتُ رأي من ركب البحر رجاءً (طعماً) لكسب دينار او درهم، و أستحسنت رأي من لايقبل شهادة[٤٢] راكب بحر.

كل هذا خطر في بالي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر و تموجه. فبينما أنا في ذلك الوضع إذ إلتفت إليّ السلطان، رحمه الله، و قال:

اما احكي لك شيئاً؟ قلت: بلى.

قال: في نفسي، أنه متى يسّر اللهُ تعالى فتحَ بقية الساحل قَسُّمتُ البلاد، و أوصيتُ و ودَّعتُ، و ركبتُ هذا البحر الى جزائرهم[٤٣]، أتتبَّعهم فيها حتى لا أُبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

فعظم و قع هذا الكلام عندي، حيث ناقض ماكان يخطر في بالي، و قلتُ له:

ليس في الارض أشجعَ نفساً من المولى، ولا أقوى نيّة منه في نصرة دين الله.

فقال: وكيف؟

فقلتُ: أما الشجاعة فلأن مولانا السلطان ما يهوله أمرُ هذا البحر و هولهُ، و أما نصرة دين الله فهو ان المولى ما يقنع بقلع (بإزالة) أعداء الله من موضع مخصوص حتى يطهّر جميع الارض منهم[٤٤].

(٤١) ابن شداد يتحدث عما حدث سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م اي اول سنة التحق فيها بموكب صلاح الدين، و سبب حداثة عهده برؤية البحر هو انه من الموصل، و نشأبها و ببغداد.

(٤٢) يقصد أن البحّار لاتقبل شهادته في المحاكم لقلة عقله. (د. محسن)

(٤٣) يقصد جزر و أرض قارة اوروبا.

(٤٤) تُعَدّ الحرب ذروة فشل الاطراف المتباينة في الوصول الى حل لحسم أو لانهاء الخلافات، و لهذا فمن المنطقي أن تفرز أجواء الحروب المسمومة مفاهيم تنم على التعصب و مقت الآخر الذي تخفّ و طأته أيام السلم، او حين تضع الحرب أوزارها.

و أستأذنت منه في أن أحكي له ماكان يخطر في بالي، فأذن لي. فحكيتُ له، ثم قلت:

ما هذه إلا نيّة جميلة، ولكن المولى يُسيّر في البحر العساكر، و االسلطان سور الاسلام و منعته، لا ينبغي له أن يخاطر بنفسه.

فقال: أنا أستفتيك (أستجوبك): ما أشرفُ الميتات؟

فقلت: الموت في سبيل الله.

فقال: غايةُ ما في الأمر أن أموتَ أشرف الميتات فانظر إلى هذه الطوية (النية) ما أطهرها، و إلى هذه النفس ما أشجعها و أجسرها، رحمة الله عليه.

اللّهم، إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك، رجاء رحمتك، فارحمه[٤٥]

(٤٥) ابن شداد، ص: ٧٩.

إلتزامه بأهداب الدين
او ما يُعنونهُ إبن شداد

((ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية و ملاحظته للأمور الشرعية)) رحمه الله

ورد في الحديث الصحيح عن النبي-صلّى الله عليه وسلّم- أنة قال:

((بُني الاسلامُ على خمس: شهادةُ أن لا الهَ إلاّ الله، و إقام الصلاةِ، و إتاء الزكاةِ، وصوم رمضان، و الحجَّ إلى بَيت الحرام)).

وكان السلطان حَسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدّليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم و أكابر الفقهاء، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته... و كان من شدة حرصه على العقيدة يعلمها لاولاده الصغار، حتى ترسخت في أذهانهم منذ الصغر، و رأيته[٤٦] و هو يدرّبهم عليها، و هم يقرأون ما حفظهم بين يديه.

و كان شديد المواظبة على صلواته، حتى انه ذكر يوماً أن له سنين لم يصلّ إلاّ جماعة، و كان إذا مرض يستدعي الامامَ وحدَهُ، و يكلّف نفسه القيام، و يصلّي جماعة، و كان يواظب السُّنن الرواتب[٤٧].

وكان له ركعاتٌ يصليها إذا إستيقظ في الليل، و إلا أتى بها قبل صلاة الصبح، و ما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه[٤٨]، ولقد رأيتُهُ-قدّس الله روحه- يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيبَ فيها ذهنه كما كان ينزل من فرسه إذا أدركته الصلاة و صلى.

(٤٦) يؤكد ابن شداد على انه رأى جوانب من إهتمامات السلطان يوسف بن ايوب الشخصية، و لهذا عُدّت كتاباته بمثابة وثيقة، فكان شاهد عيان لتلك الجوانب.

(٤٧) السّنن الرواتب= السنن التابعة للفرائض او المؤقتة بوقت مخصوص.

(٤٨) يقصد ابن شداد: باستثناء لحظات الغيبوبة التي سبقت رحيله، كما سيشرحة في الجملة التالية.

اما زكاته: فإنه مات-رحمة الله تعالى- ولم يحفظ ما وجبت به عليه الزكاة.

اما صدقة النَّفل[٤٩] فانها أستنفَدت جميع ما ملكهُ من الأموال، فأنه ملك ما ملك و مات، ولم يخلف في خزانته من الذهب و الفضة الا سبعة و اربعين درهماً ناصرية، و جرُما[٥٠] واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلّف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية و لا مزرعة و لا شيئاً من أنواع الاملاك، رحمه الله[٥١].

وعن صوم القائد، يقول القاضي المؤرخ:

كان على السلطان فوائت[٥٢] بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعدّدة، و كان القاضي الفاضل[٥٣] قد تولّى ثبت (جدولة) تلك الأيام، و شرع في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها، و واظب على الصوم مقداراً زائداً عن شهر، فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراضُ و ملازمةُ الجهاد عن قضائها. فالصوم كان لا يوافق مزاجه، فألهمه اللهُ تعالى الصّوم بقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أُثبِتُ الأيام التي يصوم فيها، لأن القاضي الفاضل كان غائباً، و الطبيب

(٤٩) النَّفل: غير المفروض. ما طلب من الانسان زيادة على الواجبات و الفرائض.

(٥٠) ربما يُقصد بالجرم الدينار. انظر هامش (٥) صفحة (٥٨). من كتاب النوادر.

(٥١) ولهذا فمن يتشبه بهذا القائد عليه أن يكون في زهده عن مغريات الدنيا و مقتنياتها و يكون قدوة تتذكره الاجيال، و يشيدُ به العدو قبل الصديق.

(٥٢) فوائت: ما فات عليه الصوم لسبب شرعي.

(٥٣) مستشار السلطان الشهير و أحد أعلام البلاغة و حكيم عصره و كاتب رسائلة (عبدالرحيم البيسانى، ت. ٥٦٩هـ/١٢٠٠م) انظر رسائل القاضي الفاضل. دراسة و تحقيق د. علي نجم عيسى، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥.

يلومه ((ينصحه ألاّ يصوم)) وهو لايسمع، و يقول: ((لا أعلم مايكون))، فكأنه كان ملهماً ببراءة ذمّته، ولم يزل حتى قضى ((أدى)) ما كان عليه.

وأمّا الحجّ:

فإنه لم يزل عازماً عليه، و ناوياً له، و لاسيما في العام الذي توفي فيه، فأنه صمّم العزم عليه، و أمر بالتأهب له، و عُملت الرفادة، و لم يبق إلاّ المسير، فاعتاق ((أعاقة)) عن ذلك بسبب ضيق الوقت، و فراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخّره الى العام المقبل، فقضى اللهُ ما قضى، و هذا شيء اشترك في العلم به الخاص و العام[٥٤].

وكان-رحمة الله تعالى- يحبّ سماع القرآن العظيم، حتى انه كان يستخير ((يختار)) إمامه، و يشترط ان يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه، كما كان يستقريء من يحضره في الليل-وهو في برجه-[٥٥] الجزئين من القرآن و الثلاثة و الأربعة، وهو يسمع. ولقد إجتاز (مرّ) ذات يوم على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقرّبه، و جعل له حظاً من خاصّ طعامه، و وقف عليه و على أبيه جزءاً من مزرعة.

(٥٤) يقصد بهاءالدين ابن شداد ان خواص السلطان، و العوام ((الناس)) كانوا يعرفون أن سلطانهم قد إستعد لأداء فريضه، لولا رحيله عن الدنيا.

(٥٥) المقصود هو البرج الخشب المحصّن الذي صار يبيت فيه السلطان، احترازاً، بعد تعرضه لمحاولتي اغتيال على أيدي الجماعة الاسماعيلية (الحشيشية) كانت الاولى منها عام ٥٧٠هـ/١١٧٥م، أثناء حصاره لحلب، و الثانية-وهي الأخطر- في ١١ ذي القعدة ٥٧١هـ/١١٧٥م أثناء حصاره لبلدة عزاز، تمكن فيها احد الرجال الثلاثة من جرحه في عنقه.

راجع البنداري-سنا البرق الشامي (مختصر البرق الشامي) في سيرة صلاح الدين، لكاتبه العماد الكاتب الاصفهاني (ن ٥٩٧هـ/١٢٠١م) تحقيق د. رمضان ششن. استانبول/٢٠٠٤، ص٩٩.

وكان رقيق القلب، غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه. كما كان شديد الرغبة في سماع الحديث، و متى سمع عن شيخ ذي رواية عالية و سماع كثير، فان كان ممّن يحضر عنده إستحضره و سمع عليه، فاسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده و مماليكه و المختصين به. وكان يأمرُ الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، و ان كان ذلك الشيخُ ممّن لا يطرق أبواب السلاطين، و يتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى اليه، و سمع عليه. وقد تردّد الى الحافظ عمادالدين احمد بن محمد الاصفهاني المحدّث المشهور[٥٦].

كما كان-رحمه الله تعالى- يحبّ أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرُني في خلوته، و يحضر شيئاً من كتب الحديث، و يقرأهو، فاذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبُه، و دمعت عينُه.

و كان كثير التعظيم لشعائر الدين، مؤمناً ببَعث الاجسام و نشورها، و مجازاة المُحسن بالجنّة و المسيء بالنار، مصدّقاً بجميع ما وردت في الشرائع، منشرحاً بذلك صدرهُ، مبغضاً ((كارهاً)) للفلاسفة و المعطلة و الدهرية[٥٧]، ومن يعاند الشريعة، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر شهاب الدين غازي، أعزّ الله أنصاره-بقتل شاب كان يقال له السُهروردي[٥٨]، قيل عنه انه معاند للشرائع مبطلاً(!) و كان قد قبض ولدهُ المذكور ((غازي)) لما بلغه من خبره، و عرّف السلطان به، فأمَرَه بقتله و صلبه

(٥٦) زار بغداد و دمشق و صور، و استقرّ في الاسكندرية و بها توفي عام ٥٧٦هـ/١١٨٠م.

(٥٧) عُرف عن صلاح الدين يوسف مقارعته للفلسفة و علم الكلام و المنطق، و محاربة الفكر الشيعي بشقيه، الموسوي (الاثنا عشري) و الاسماعيلي.

(٥٨) الزاهد المتصوف الشهير شهاب الدين (قتل ٥٨٧هـ/١١٩١م) و فيلسوف إشراقي كبير. شافعي المذهب رحل بين مدن و استقر في حلب في عهدة الملك الظاهر غازي اتهمته رجالات من حلب بالمروق عن الدين، من كتبه: حكمة الاشراق، هياكل النور، رسالة في اعتقاد الحكماء، التلويحات، التنقيحات، المعارج، المشارع، المطارحات و الأسماء الادريسية، تمّ تنفيذ الاعدام به صبراً.

أياماً، فقتله[٥٩]. وكان-قدّس الله روحه- حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الانابة اليه ((الاتكال عليه)) ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه:

فالفرنج-خذلهم الله- كانوا نازلين ببيت نوبة، وهو موضع قريب من القدس-حرسها الله تعالى-، يكون بينهما بعض مرحلة. وكان السلطان بالقدس، وقد أقام يزكا[٦٠] على العدو محيطاً به، وقد سيّر إليهم الجواسيس و المخبرين، فتواصلت الأخبار بقوّة عزمهم على الصعود الى القدس و محاصرته، و تركيب القتال عليه، و اشتدّ خوف المسلمين بسبب ذلك، فاستحضر (السلطان) أمراءه و عرّفهم ما قد دَهَمَ (أصاب) المسلمين من الشدة، و شاورهم في الاقامة بالقدس، فأتوا بمجاملة باطنُها غيرُ ظاهرها، و أصرّ الجميع أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فانها مخاطرة بالاسلام، و ذكروا أنهم يقيمون هم، و يخرج هو-رحمه الله- بطائفة من العسكر يكون حول العدوّ، كما كان الحال بعكا[٦١]، و يكون هو و مَن معه بصدد منع ميرتهم و التضييق عليهم، و يقومون هم بصدد حفظ المدينة و الدفاع عنها.

إنفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرّ على أن يقيم بنفسه، عِلماً منه أنه إن لم يُقم هو فلن يقيم يحفظها أحد. فلما إنصرف الأمراء الى بيوتهم جاء مِن عندهم مَن يُخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل ابوبكر أو أحد اولاده، حتى يكون هو الحاكم عليهم و الذي يأتمرون بأمرِه، فعلم-السلطان- ان هذه إشارة منهم الى عدم الاقامة، و ضاق صدرُه، و تقسّمَ ((تشتّت)) فكرُتُه، و إشتدّتَ فكرتُهُ.

(٥٩) رواية ابن شداد على خلاف مع ما تذكره المصادر الأخرى، فكان ضحيّة تشنيع بعض رجالات البلاط، ثم انه لم يصلب، بل قتل صبراً باغلاق باب السرداب عليه، فمات وعو على سجادة الصلاة.

(٦٠) اليزك: لفظ فارسي معناه طلائع الجيش، وقد وردت تفاصيل عن المهمات العسكرية التي أنيطت اليها في طيات كتاب بهاءالدين ابن شداد.

(٦١) حيث استولى عليها الفرنجة (الصليبيون) ثانية-كما ذكرنا- بعد حصارٍ طويل.

ولقد جلسْتُ في خدمته تلك الليلة-وكانت ليلة جمعة- من اول الليل الى أن قارب الصُبحُ، وكان الزمان شتاءً، و ليس معنا ثالثُ إلا الله تعالى، و نحن نقسِّم أقساماً، و نُرتبُ على كل قسم مُقتضاهُ، حتى أخذني الاشفاقُ عليه و الخوف على مزاجه فانه كان يغلب عليه ((اليُبس))[٦٢]. فشفعتُ اليه حتى يأخذ مضجعه، لعله ينام ساعةً، فقال-رحمه الله- ((لعلّك جاءك النوم؟))، ثم نهض.

فما وصَلتُ إلى بيتي و أخذت بعضَ شأني إلا و أذَّنَ المؤذن، و طلع الصبحُ، و كنتُ أصلي معه الصُبحَ في معظمَ الوقت، فدخلت عليه وهو يمرّر الماء على أطرافه، فقال: ((ما أخذني النومُ أصلاً))، فقلتُ: ((قد عَلمتُ)). فقال: ((من أين؟)). فقلتُ: ((لأنّي ما نِمتُ، وما بقي وقتُ للنوم))

ثم إشتغلنا بالصلاة و جلسنا على ماكنا عليه، فقلتُ له: ((قد وقع لي واقعٌ، و اظنهُ مفيداً إن شاء الله تعالى)). فقال: ((وما هو؟)) فقلتُ له: ((إلاخلاد الى (الاعتماد على) الله تعالى و الإنابة إليه، و الاعتماد عليه في كشف الغُّمة))

فقال: و كيف نصنع؟

فقلتُ: اليوم الجمعة، يغتسل المولى ((السلطان)) عند الرواح، و يصلّي على العادة بالأقصى، موضع مَسرى ((إسراء)) النبي-صلى الله عليه وسلم- و يقدِّم المولى التصدّق بشيء خفية ((سراً، لا علانية)) على يدٍ من يثق به، و يصليّ المولى ركعتين بين الأذان و الاقامة، و يدعو الله في سجوده، فقد ورد فيه حديث صحيح، و تقول في باطنك: ((يا إلهي، قد إنقطعْت أسبابي الارضية في نصرة دينك، ولم يبقَ إلاّ الاخلادُ إليك، و الاعتصامُ بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي و نعم الوكيل. فانّ الله أكرم من ان يخيّب قصدَك))

(٦٢) يبدو أن صلاح الدين يوسف كان يعاني من ارتفاع ضغط الدم الشرياني، و نقص التروية الدموية ولهذا لم يعش طويلاً.

ففعل ذلك كلّه، و صلّيتُ الى جانبه على العادة، و صلى الركعتين بين الأذان و الإقامة، و رأيته ساجداً و دموعه تتقاطر[٦٣] على شيبته ((لحيته))، و على سجادته، ولا أسمع ما يقوله.

فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصَلتَ رقعةٌ ((رسالة)) من عزالدين جورديك-وكان على اليَزَك- يُخبر فيها أن الفرنج محتبطون ((يتحرّكون على غير هدى او إتجاه))، وقد ركب اليومَ عسكرهم بأسره الى الصحراء، و وقفوا الى قائم الظهيرة، ثم عادوا الى خيامهم، و في بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك.

و وصل أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم إختلفوا، فذهبت الفرنسيسيّة[٦٤] إلى أنهم لابدّ لهم من محاصرة القدس، و ذهب الأنگتار[٦٥] و أتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية، و يرميهم في هذا الجبل مع عدم توفر المياه، فان السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه، و أنهم خرجوا للمشورة و من عاداتهم أنهم (اي

(٦٣) انظر الى متن الكتاب، ص: ٣٧٢.

(٦٤) او الفرنجة، الصليبيون اللاّتين من الفرنسيين. الذين تألّفت منهم-في الأغلب- الحملتان الصليبيتان الاولى و الثانية، فضلاً عن مُجمل بنيان المملكة (مملكة بيت المقدس) و الكونتية و الاقطاعيات الصليبية التي أنشأوها في مدن: الرها ((اورفة)) و أنطاكية و طرابلس الشام. ثم انضاف اليهم ملكهم ملك فرنسا ((فليپ او گست))، و ملك انكلترا في الحملة الصليبية الثالية. راجع كتاب: رينيه گروسيه، الحروب الصليبية. وقد ترجمه محقق هذا الكتاب أحمد ايبش عن الفرنسية. طبعة دار قتيبة-دمشق ٢٠٠٠.

(٦٥) المقصود بالانگتار الملك ريتشارد (ريجارد) قلب الاسد (المذكور) Richard Coeur-de-Lion ملك انكلترا. و اسم الانگتار في المصادر العربية المعاصرة، مأخوذ من الفرنسية: Roid' Engleterre فظن الكتاب ان الياء الممالة قبل الراء أصلها ألف مقلوبة بطريقة نطق أهل الساحل الشامي.

الصليبيين) يتشاورون للحرب على ظهور الحبل[٦٦]. و انهم قد نصّوا على عشرة أنفس منهم و حكموهم، فبأيّ شيء أشاروا به لا يخالفونهم.

وأصل هذا الحادث كما يرويه ابن شداد

ان الفرنسيسية قرّروا التوجّه نحو القدس، و قالوا: ((نحن جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونه)). و قال الأنگتار: ((إن هذا الموضع-أي محيط القدس- قد أفسدت مياهُه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟)). فقالوا له: ((نشرب من ماء نقوع-من الماء المجتمع في قعر الوادي- و بينه و بين القدس مقدار فرسخ[٦٧]. فقال: ((كيف نذهب إلى السقي؟)).

فقال: ننقسم قسمين، قسم يركب (يذهب راكباً) إلى السقي، و قسمٌ يبقى على البلد في المنزلة، و يكون الشرب في اليوم مرة واحدة[٦٨].

طرف من صبر القائد و إحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه و تعالى: ﴿ثم جاهدوا و صبروا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾[٦٩].

ولقد رايته بمرج عكا، وهو على غاية من مرض إعتراه بسبب كثرة دمامل ((تقرّحات. ندوب))، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لايستطيع

(٦٦) هذه إشارة طريفة إلى أحد تقاليد الصليبيين في حروبهم، ولاريب أن في أخبار بهاءالدين ابن شداد ما يدل على أنه إستقاه بالاعتماد على مشاهداته العيانية الشخصية، او أنه استقى المشهد ممّن عاين أمور تلك المرحلة و أحداثها عن قرب. الا انه لايمكن تعميم التقليد على حالات التشاور كافة.

(٦٧) الفرسخ: نحو ثمانية كيلومترات.

(٦٨) النوارد السلطانية، ص: ٣٧٢-٣٧٣.

(٦٩) سورة النحل: ١١٠.

الجلوس، و انما يكون مُتّكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة، و إمتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، و كان يأمر أن يُفرَّق على الناس، و كان مع ذلك نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتّبَ الجندَ ميمنة و ميسرة و قلباً تعبئة القتال وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب[٧٠]، و من العصر الى صلاة المغرب، وهو صابر على شدة ألمه و قوّة اوجاع دمامله، و انا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبتُ يزول عنيّ ألمها حتى أنزل، و هذه عناية ربانية.

ولقد مرض-رحمة الله- و نحن على الخروبة[٧١]، و كان قد تأخّر عن تلّ الحَجَل بسبب مرضه. فبلغ الفرنج ذلك، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من جيش المسلمين شيئاً بسبب مرضه، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ، فأمرهو-رحمه الله- بالثّقل (اي بما يحمله الجيش من ذخائر) حتىّ تجهز للرحيل، و التأخر الى جهة الناصرة، و كان عمادالدين-صاحب سنجار- متمرضاً أيضاً، فأذن له، و أقام هو.

ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا، فركب على مضض، و رتب العسكر للقاء القوم تعبئة الحرب، و عين على جناح الميمنة أخاه الملك العادل ابابكر، و عين على الميسرة تقي الدين عمر ابن اخيه و وضع ولده الملك الظاهر غازي في القلب، و معه الملك الافضل علي، و نزل هو وراء القوم بطُلبه.

و أول ما نزل من تل الخروبة أحضر بين يديه فرنجياً أسيراً، فأمر السلطان بضرب عنقه بين يديه، بعد أن عرض عليه الاسلام و إبائه عنه. كلّما سار العدوُّ يطلب رأس النهر سار السلطان خلفهم، حتى يقطع بينهم و بين وصولهم إلى خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح، و يتظلّل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس عليه، و لايقبل ان تنصب له خيمة حتى لايظن العدو انه ضعيف، أو يخلد الى الراحة.

(٧٠) ثم تعريف تنظيم (الاطلاب) في موضوع: شجاعة السلطان.

(٧١) تل الخروبة يقع جنوب غرب (شَفرَ عَمّ) شرقي حيفا، على ساحل فلسطين.

ولم يزل الوضع على حاله حتى نزل العدو برأس النهر، و نزل هو قبالتهم على تل مطلّ عليهم الى أن دخل الليل. ثم أمر العساكر المنصورة ان تعود الى موضعها السابق، و ان يبيتوا تحت السلاح، و تأخّر هو و نحن في خدمته، و ارتقينا الجبل، و ضربت له خيمة لطيفة، و بُتُّ تلك الليلة بطولها و معنا الطبيب نمرّضه و نشاغله، وهو ينام تارة و يستيقظ أخرى، حتى لاح الصباح. ثم ضُرب البوق-لايقاظ النيام من الجند-و ركب هو، وركبت العساكر، و أحدقَت (احيطت) بالعدوّ، و رحل العدوّ عائداً الى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، و ضايقه المسلمون في ذلك اليوم مضايقه شنيعة.

في اليوم هذا حضر اولاده بين يديه، وهم الملك الظاهر شهاب الدين غازي، و الملك الافضل نورالدين علي و الملك الظافر مظفرالدين خضر، كما حضر آخرون، ثم غادرونا حتى لم يبق عنده إلا انا و الطبيب و عارض ((مقدم)) الجيش، إضافة الى الخدم ((الغلمان)) صاروا يحملون الاعلام و البيارق. وبدا المشهد-عن بعد- و كأن تحت الأعلام خلق عظيم، ولكن ليس تحتها الا واحد يعدّ خلقا عظيماً[٧٢].

لم يزل العدوّ سائراً و القتل يعمل فيهم، وكلما قُتل منهم شخص دفنوه، وكلما جرُح منهم رجل حملوه، حتى لايبقى بعدهم من يُعلم قتله و جرحه، و هم سائرون و نحن تشاهدهم. حتى اشتدّ بهم الأمرُ، و نزلوا عند الجسر و كانوا-اي الإفرنج- متى مانزلوا الى الأرض[٧٣] أيس المسلمون من بلوغ غرضٍ منهم، لأنهم يحتمون في حالة نزولهم حماية عظيمة.

وبقي-رحمه الله- في موضعه، و العساكر على ظهور الخيل قبالة العدوّ الى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على غرار ما باتوا بارحتهم ((ليلة أمس)). وعدنا إلى

(٧٢) يريد به السلطان صلاح الدين يوسف. يقول أحمد ايبش: والله لقد صدق و نحن نقول: لقد صدق الرجلان. (ابن شداد و أحمد ايبش)

(٧٣) يقصد حين يخرجون من خيامهم و ينزلون من التل.

منزلنا، فبتنا حتى الصباح.. و رحل العدو على مضض (مضطرّين).. يختتم بهاءالدين ابن شداد اشادته بصبر قائده ليقول: فانظر الى هذا الصبر و الاحساب[٧٤]، الى أي غاية بلغ هذا الرجل، اللهم ألهمتهُ الصَبرَ و الاحتساب، و وفّقته، فلاتحرمه ثوابه، يا أرحم الراحمين.

ولقد رأيته-رحمه الله تعالى- وقد جاءه خبر وفاة ولد له مراهق او بالغ يسمى إسماعيل، فاطلع على الكتاب ولم يُعرِّف أحداً، ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه ما يدلّ على وفاة ولده سوى انه لما قرأ الكتاب دمعت عينه[٧٥].

و رأيته ليلةً على بلدة ((صفد)) وهو يحاصرها، وقد قال: ((لاننام الليلة حتى تُنصب لنا خمسة مناجيق))[٧٦] ورتّب لكل منجنيق قوماً يتولّون نصبه، وكنا طول

(٧٤) الاحتساب: العمل في سبيل الله، من قبيل الأمر بالمعروف.

(٧٥) يقول محقق الكتاب: ذكر ابن واصل في كتابه مفرج الكروب، ٤٢٣/٢-٤٢٥، أسماء اولاد صلاح الدين يوسف، و ليس بينهم من كان إسمه إسماعيل. (وهذا صحيح. د.محسن).

(٧٦) مناجيق، و مجانيق، و منجنيقات، مفردها (المنجنيق) او المنجنوق، لفظ أعجمى معرب، معناه ((ما أعجبني)) (من چەند سەيرم). في اللاتينية – Mangonellus، و في الفرنسية – Mangonneau، و في الانكليزية – Mangonel. آلة من آلات الحصار في هدم الاسوار و في القتل في العصور الوسطى، كان يقوم مقام المدفع و الصاروخ، و ان كانت قذائفه من الحجارة و كتل النار، و احياناً الأفاعي و العقارب، و الجثث العفنة، وقد وصفه القلقشندي في كتابه (صبح الاعشى، ١٤٤/٢) بأنه آلة من خشب له دفّتان قائمتان، بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل و ذنبُهُ خفيف، توضع في احدى كفتيها بعض المواد المذكوره، حتى ترفع أسافله على أعاليه، ثم ترسل فيرتفع ذنبُهُ الذي فيه الكفة فتقذف المادة (الحجر مثلاً)، فما أصاب شيئاً إلا دمّره و أهله، وقد وصفه مرضي بن مرضي الطرسوسي في كتابه (تبصرة ارباب الالباب..) الذي الفه ايام صلاح الدين، وقد نشر المستشرق (كلود كاهين) مقتطفات من هذا المخطوط، ونشر في مجلة المعهد الفرنسي في دمشق و نضيف: في حوزتنا نسخة مصورة بالمايكرو فيلم من هذا المخطوط كما وصنف الجواليقي و العباسي و ارنبغا الزردكاش و المقريزي، و غيرهم هذه الالة.

الليل-قدّس الله روحه- في ألدّ فكاهة و ارغد عيشة، و الرسل تتواصل فتخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا، و من المنجنيق الفلاني كذا، حتى أتى الصباح وقد فرغ من نصبها، ولم يبق الا تركيب خنازيرها* عليها، و كانت الليلة من أطول الليالي و أشدها برداً و مطراً.

و يضيف ابن شداد الى قوله: رأيت السلطان ذات يوم وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر، ابن أخيه، وكان بمثابة فارس بني أيوب لبسالته-ونحن في مقابلة الافرج جريدة[٧٧] على الرمله (بفلسطين) و في كل ليلة تقع الصيحة[٧٨]، فتقلع الخيام و الناس تقف على ظهر[٧٩] حتى الصباح، و الهدو بيازور[٨٠]، بيننا و بينها شوط فَرس لاغير، فأحضرَ الملك العادل سيف الدين ابوبكر، و علم الدين سليمان ابن جندر، و سابق الدين بن الداية، و عزالدين بن المقدّم، و أمر بالناس فطردوا-أُبعدوا- من قرب خيمته، بحيث لم يبق حول الخيمة أحد عن رمية سَهم، ثم أخرج كتاباً، و بدأ يقرأه، و بكى بكاء شديداً حتى أبكانا، من غير أن نعلم السبب. ثم قال-رحمة الله- و العَبرةُ تخنقه: توفي تقي الدين عمر.

فاشتدّ بكاؤه و بكاء الجماعة، ثم عدتُ الى نفسي فقلتُ: ((استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، و انظروا أين انتم، و فيم أنتم، و اعرضوا عما سواه)). فقال رحمه الله: نعم، أستغفرالله. و أخذ يكررها، ثم قال: لا يعلم بها!. وقصد من ذلك الا ينشر خبر رحيل هذا القائد، بين الصليبيين، نظراً لموقعه في قيادة جيش السلطان.

* آلة لشد أجزاء المنجنيق، و تسمى أيضاً الجنرير، السلسلة، محرّف (زنجير) لفظ كردى و فارسي.

(٧٧) جريدة، من تجريد او تجييش العسكر.

(٧٨) صيحة جند الطرفين و اطلاق موسيقى حماسية.

(٧٩) اي ممتطية ظهور جيادها، راكبة مستنفرة للقتال..

(٨٠) يازور: بُليدة بسواحل مدينة الرملة من أعمال فلسطين. ياقوت الحموي، معجم البلدان.

وطلب شيئاً من ماء الورد فغسل عينيه، ثم استحضر الطعام فتناولوه، ولم يعلم بالحادث حتى عاد العدوّ الى يافا، وعدنا نحن الى بلدة النطرون (بأرض فلسطين)، و كانت مقر ثقلنا[٨١].

وكان السلطان شديد الشوق و الشغف باولاده الصغار، وهو صابر على مفارقتهم، راض ببُعدهم عنه، كما كان يتحمل مرّ العيش و خشونته، مع قدرته التامة على غير ذلك، إحتساباً لله تعالى.

اللهم، انه ترك ذلك اتباعاً لمرضاتك، فارض عنه و ارحمه[٨٢].

هكذا واصل القاضي المؤرخ في ذكر خصائص هذا القائد، بلغة مناقبية، أشبه بنشيد في مدح رجل ملهم و ملهم.

(٨١) مقر الثقل: الموضع الذي تودع فيه الذخائر من اسلحة و مؤونة و خيام..الخ.

(٨٢) النوادر، ص٨٤.

ذكر نُبَذٍ من حلمه و عفوه

قال الله سبحانه و تعالى:

﴿والعافين عن الناس، والله يُحِبُّ المُحْسِنين﴾

ولقد كان حَليماً متجاوزاً، قليلَ الغضب.

ذات يوم كنتُ في خدمته بمرج عيون قبل بدء الفرنج بحصار عكا الشهير. وكان من عادة السلطان أن يركب حين تقتضي الحاجة، ثم ينزل ليتناول طعامه مع الناس، ثم ينهض الى خيمته الخاصة للنوم، ثم يستيقظ لأداء الصلاة، بعده يجلس لوحده و أنا في خدمته، و نقرأ شيئاً من الحديث النبوي، او شيئاً من أصول الفقه، ولقد قرأ علىّ كتاباً مختصراً للفقيه سليم الرازي.

فنزل ذات يوم على عادته، و مُدّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد الى الجلوس، و قال: نُصلّي و ننام. ثم جلس يتحدّث حديث متضجر ((متضايق)) وقد أخلي المكان إلا ممّن لزم[٨٣].

وتقدم إليه أحد مماليكه يطلب منه قضاء إحدى حاجاته، و يطلب تأييد مطلبه بوضع توقيع السلطان عليه بالدواة[٨٤] وكان-رحمة الله- جالساً في باب الخرگاه[٨٥]، لايستطيع أحد الدخول، و الدواة في صدرها (في نهاية الخرگاه الكبيرة) و هذا يعني ان على السلطان أن يأمر احد رجاله باحضار الدواة. فماكان من السلطان إلا و أحضر الدواة بنفسه، فوقّع على مطلب الرجل و هذا ما حرك عاطفة إبن شداد، فوجه كلامه

(٨٣) إلا من كان وجوده ضروريا، لازما.

(٨٤) الدواة- المحبرة و أدوات التوقيع.

(٨٥) خرگاه: لفظ فارسي يعني الخيمة الكبيرة (الهنداوي: المعجم في اللغة الفارسية، ص١٣٣) و شرحَه رينهارت في معجمه (إختصاره: Suppl. Aux. Dict. Arab) بأنه نوع من الخيام يتكوّن من قطع عديدة و تغطيها قطع من اللباد.

اليه قائلاً: قال الله تعالى في نبيّه-صلى الله عليه وسلم- ﴿و إنكَ لعلى خُلق عظيم﴾، وما ارى المولى ((السلطان)) إلا وقد شارك النبيّ في هذا الخلق، فقال: ما ضرَّنا ((لم نتضرّر)) شيء، قضينا حاجته، و حصل الثواب.

ويعلق ابن شداد على مارآه: أن مثل هذه الحادثة لو نفذها احد الناس العاديين لأحدث ضجيجاً ((لقام و قعد)). و يضيف: ومن يقدر أن يخاطب احداً هو تحت حكمه بمثل ذلك، و هذه غاية الاحسان و الحلم، و الله لا يضيع أجر المحسنين.

ومن حلم القائد: أن طراحته ((طيلسانه))[٨٦] اي ((غطاء رأسه)) تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لايتأثر عنده لذلك!.

ودخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير كثير الوحل، الى القدس الشريف، فنضحت البغلة ((رمت ما عليها)) من الطين على ملابسه، فلوثت ((أهلكت)) جميع ما كان عليه، وهو يبتسم.

يواصل القاضي المؤرخ رواية حكايات عن حلم هذا القائد، إلا أن هذا الحلم-كما نرى- يتحول الى عكس المأمول، وعي روايات يرويها بنبرة (ذكر الشمائل و الميل الى المبالغة) في بعض السرديات، فيقول: ولقد كان-السلطان- يسمع من المستغيثين اليه و المتظلمين أغلظ الكلمات ((أغلظ ما يمكن أن يسمع)) لكنه يقابل ذلك بالبشر و القبول وهذه -كما يقول اليه إين شداد- حكاية يندر أن يسطر مثلها:

وذلك انه كان قد[٨٧] إتجه أحد ملوك الافرنج-خذلهم الله- بمدينة (يافا)، فأن العسكر (يقصد العسكر الاسلامي) كان قد رحل عنهم، و بَعُدَ (إبْتَعَدَ) و تراجع الى النطرون، وهو موضع بينه و بين يافا مسافة مرحلتين. و جرّد (جهز)-رحمة الله-

(٨٦) هل كان صلاح الدين ينزع طراحته، و يضعها في مكان يتعرض الى مثل هذا العمل غير المقبول؟ و إن كان هذا قد حصل فانما يدلّ على اهماله لأمر يمسه، ولا يدل على الحلم و التواضع. ام ان المقصود بالطراحة هو غير غطاء الرأس.

(٨٧) لغة فضفاضة، وغير متصلة لابن شداد حاولنا تشذيبها.

العسكر، و مضى الى قيسارية على الساحل الشامي، عساه يتلقى نجدة، و يبلغ غرضاً من العدو ولما علم الافرنج الذين كانوا داخل مدينة يافا- و معهم ريجارد قلب الاسد-ملك انكلترا-[٨٨] بأمر تحرك السلطان، فاستعد الملك و سار بقواته نحو قيسارية، خشية وصول نجدة الى جيش صلاح الدين، الذي بدت عليه مظاهر التعب. و بقي ريجارد في نفر يسير من جنده لعلمهم ببُعد قوات صلاح الدين عنه المرابط في معسكره[٨٩].

ولما وصل-رحمةالله- الى قيساريه، و رأى النجدة قد وصلت الى البلد[٩٠] يقصد عكا المحاصرة اصلاً من القوات الصليبية برّا و بحراً- و احتمت بالبلد، و علم انه لن ينال منهم غرضه (لن يستطيع ان ينتصر عليهم) سار ليلاً حتى وصل يافا صباحاً، و كان ريجارد (الانگتار) في سبعة عشر فارساً و نحو ثلاثمائة رجل (مشاة) نازلاً خارج البلد في خيمة له، فصبّحهُ العسكر صباحاً، فما كان من الملعون-يقصد الانكتار- إلا و إمتطى فرسه، وكان هذا الملعون-كما يصفه ابن شداد- شجاعاً باسلاً، صاحب رأي مسموع في الحرب، و ثبت بين يدي العسكر، ولم يدخل البلد. فاستدار العسكر الاسلامي بهم من كل الأطراف، إلا من جهة البلد، و تعبّى العسكر تعبئة القتال. و أمر السلطان عسكره ان ينتهز الفرصة و يشن حملة عليهم.

ويذكر المؤرخ ان بعض الامراء الكرد أجابوه بكلام خشن، مفاده عدم التوفير في- عدم الحصول على- اقطاعهم، فغضب السلطان، و عطف- لوى- عنان فرسه، لعلمه انهم-اي الأمراء- لايعملون في ذلك اليوم (اي أنهم لن يقاتلوا) وتركهم السلطان و

(٨٨) المصادر الاسلامية نظلق عليه اسم الانكتار او الانكتير، وقد تمّ التعريف به في مكان سابق. وانظر هامش ص(٥٣) و هامش ص(٨٧) من كتاب (النوادر..).

(٨٩) انظر بحثنا المنشور في المجلة العربية للعلوم الانسانية/ مجلة كلية الآداب جامعة الكويت- العدد (٢٦) المجلد ١٩٨٧/٧.

(٩٠) لايذكر القاضي المؤرخ اسم البلد، ولكن يفهم انه يقصد عكا.

انصرف، و أمر بقلع خيمته التي كانت منصوبة، و تيقّن الجند بأن السلطان صلب و قتل جماعة.

ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر غازي[٩١]-رحمه الله- انه خاف منه في ذلك اليوم*، حتى انه لم يتجاسر أن ينظر الى عيني والده، رغم انه حمل في ذلك اليوم (اي قاد حملة عسكرية) للاغارة على الفرنجه، ثم منعه والده من التوغل في المسير. ثم سار السلطان-رحمه الله- و نزل ببلدة يازور-على ساحل مدينة الرملة بفلسطين[٩٢]، فضُربت له خيمة صغيرة، و نزل بها، و نزل العسكر في منازلهم تحت صيوانات[٩٣]، كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت، ولم يكن بين الامراء إلا من يرتعد خوفاً، او من يعتقد انه مأخوذ مسخوط ((معاقب)) عليه*. وقال: (اي الملك الظاهر نجل السلطان). ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه* حتى استدعاني، فدخلتُ عليه، وقد وصلته من دمشق المحروسة فواكه كثيرة فقال (اي السلطان): اطلبوا الأمراء حتى يشاركونا في تناول الفواكه.

أضاف الملك الظاهر: شعرتُ بالفرح و أُزيج عني الخوف ((فسرّي عني ما كنتُ أجده، و طلبت الامراء، فحضروا وهم خائفون*، فوجدوا من بشره و انبساطه (و

(٩١) أبرز اولاده-كما ذكرنا- ولاه حكم حلب، وما زالت آثار أيام حكمه شاخصة، سواء في قلعة حلب او الجامع، و غيرهما. بحثنا المنشور (ليكۆلينەوەيەكى بەراودركارى لەنێو دوو قەلاتدا هەولێر و حەلەب لە بەرگى (٢٢-٢٣) گۆڤارى كۆرِى زانيارى عێراق، بەغدا ١٩٩٢، ل ل:١٣٥-١٥٨. حكم حلب ثلاثون سنة.

* المؤرخ، هنا يتحدث عن حلم و عفو القائد المُلهم، لكنه يقرّ انه كان مصدر خوف للآخرين حتى الملك الظاهر صاحب حلب، أفضل اولاده كان يخاف منه. ف (الملك هو الملك)-كما يقول أحد الشعراء، رغم مابين الملوك من تفاوت (في نشر الخوف و الرعب).

(٩٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان.

(٩٣) مفردها صيوان. كلمة فارسية و (كردية) تعني القباء و الخيمة (و المظلة).

راحته) ما أحدث لهم الطمأنيتة و الأمن و السرور، و أنصرفوا عنه-بعد تناولهم الفواكه- على عزم الرحيل، كأن لم يجر شيء أصلاً.

يختتم القاضي المؤرخ كلامه في مجال حلم و عفو القائد قائلاً:

((فانظر الى هذا الحلم الذي لايتأتي في مثل هذا الزمان، ولا حُكي عمّن تقدم من أمثاله، رحمة الله عليه))[٩٤].

مروءة القائد (قدّس الله روحه)

قال النبـي-صلى عليه وسلم- بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق.

و كان ((صلعم)) إذا صافحه الرجل لايترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك.

ولقد كان السلطان كثير المروءة، نديّ الوجه كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يزوره من الضيوف، لا يقبل أن يغادره الضيف مالم يطعم لديه، وما يطلب منه شيئاً إلاّ و ينجزه له.

ويكرّم الوافد عليه، و إن كان كافراً، و لقد وفد عليه البرنس بوهيموند الثالث- الذي حكم امارة انطاكية طويلاً[٩٥]، بين ١١٦٣-١٢٠١م، فما أحسّ به إلاّ وهو واقف على باب خيمته بعد التوقيع على صلح الرملة في شهر شوال سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، عند منصرفه من القدس الى دمشق، عرض له في الطريق و طلب منه شيئاً، فأعطاه ارض العمق، وهي بلاد كان أخذها السلطان منه عام فتح ساحل الشام، إثر معركة حطين، و استرجاع القدس، في سنة اربع و ثمانين و خمسمائة.

و رأيته ذان يوم وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة بأرض فلسطين، وهو رينوگارنييه، فاحترمه السلطان و اكرمه، و تناولا الطعام معاً، ثم عرض عليه

(٩٤) النوادر: ٨٨.

(95) Le Prince Bohemond III d'Antioche.

الاسلام، بعد أن ذكر له فضائل الاسلام و محاسنه، و حثّه عليه، لكن الأمير الصليبي أبى الدخول الى الاسلام.

كما كان يُكرم من يرد عليه من المشايخ و أرباب العلم و الفضل و ذوي الاقدار (من لهم احترمهم لدى الناس) و كان يوصينا بأن لا نتجاهل من يجتاز (من يمّر) بخيمنا من المشايخ المعروفين، حتى يحضرهم عنده، و ينالهم من إحسانه ((كرمه)).

لقد مر بنا سنة اربع و ثمانين و خمسمائة رجل جمع بين العلم و التصوف، و كان يتمتع بمكانة بارزة، وكان أبوه صاحب مدينة توريز ((تبريز في بلاد فارس)، إلا ان الرجل لم يشأ أن يقتدي بوالده، فبدأ يشتغل بالعلم، و ذهب الى الحج، و وصل بيت المقدس، ولما قضى لبانته (حاجته) و واجبات الزيارة و رأى آثار السلطان-رحمه الله- في بيت المقدس، قرّر زيارته، فوصل إلينا في العسكر المنصور، وما أحسستُ به إلا وقد دخل علَيّ في الخيمة، فلقيته و رحبتُ به، و سألته عن سبب وصوله، فأخبرني بذلك، و انه يؤثر (يفضّل) زيارة السلطان، لما رأى فيه من الآثار الحميدة الجميلة. فعرّفتُ السلطان-رحمة الله عليه- تلك الليلة وصول هذا الرجل، فاستحضره، وروى له حديثاً و شكره عن الاسلام، و حثه على الخير.

يودعني ثم إنصرفنا، و بات عندي في الخيمة، فلما صلّينا الصبح أخذ يودعني، فقبّحتُ له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت و لم يَلوِ على ذلك وقال: قضيتُ حاجتي منه، ولا غرض لي فيما عدا رؤيته و زيارته. و انصرف من ساعته[٩٦].

(٩٦) لانرى في موقف الرجل أية غضاضة، فلم يكن بحاجة الى مال ليطلبه من السلطان، و اكتفى بزيارته. فقد رفض جاه و مال والده (صاحب، او حاكم) مدينة كبيرة مثل تبريز، و تفرّغ لخدمة العلم و التصوف و الزهد عن الحياة، و كان الرجل-و ابن شداد لايذكر اسمه، نموذجاً للرجل العالم، و موقفه يعد الموقف الصحيح، فلم يشأ ان يزور فائداً عظيماً ولو كان صلاح الدين يوسف ليطلب إحسانه. كما نرى ان هذا يدخل ضمن الأمثلة التي تذكر عن الثنائية الموجودة بين المثقف و رجل السلطة. فلاداعي لتقبيح مسيره، و سيرته لعدم توديعه للسلطان الكريم.

مضت على مغادرته للمعسكر ليال، فسأل السلطان عنه، فأخبرته بفعله، فظهرت عليه آثار العتاب، إذ كيف لم أخبره لمغادرته، و قال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل، و ينصرف عنّا من غير احسان يمسّه منا؟ و شدد النكير عليّ في ذلك، فما وجدتُ بدّاً من أن اكتبُ كتاباً الى محي الدين-قاضي دمشق- كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، و ايصاله رقعة كتبتُها اليه طيّ كتابي، و أخبرتُه فيها بإنكار السلطان رواحه من غير إجتماعه به، و طلبتُ منه أن يعود، و كان بيني و بينه صداقة. ولم يمر طويلاً إلا و عاد الرجل، فأخبرتُ السلطان بذلك، فطلب حضورهُ، فحضر فرحب به، و إنبسط معه، و إستضافه أياماً، ثم خلع عليه خلعة ((هدية)) حسنة، و أعطاه مركوبا (حيوان ركوب) لائقاً، و ثياباً كثيرة، يحملها الى أهل بيته و أتباعه و جيرانه(!) و نفقة طريق وصوله الى بلدته، و انصرف، و لسانه يلهج بالشكر للسلطان و الدعاء له بالنصر و لأيامه.

و ذات يوم رأيتُ السلطان وقد وقف أسيرٌ افرنجي بين يديه، وقد ظهرت عليه علامات الخوف و الجزع. فظلب القائد من ترجمانه أن يسأله من أي شيء يخاف؟ فأطلق الله لسانه فقال: كنت اخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له و حضوري بين يديه، أيقنتُ أني ما أرى إلا الخير. فرقّ له قلب السلطان، ومَنَّ عليه ((كافأه)) و أطلق سراحه[٩٧].

وفي يوم آخر، و كنتُ راكباً، في خدمته، قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية[٩٨] و معهم امراة قي منتهى التحرّق (شدة الحزن) كثيرة البكاء، وهي تدق على صدرها

(٩٧) ولهذا عدّهُ مؤرخون اوربيون مثالاً للفروسية (سوارچاكى) و الشهامة، و ألفوا عن صفاته كتباً.

(٩٨) نسبة الى اليزك. لفظ فارسي معناه (طلائع الجيش)، و كان رجال اليزكية يجمعون بين وظيفتي الكشافة و كتائب المطاردة السريعة التي كانت تُباغت العدوّ و تشتبك معه قبل أن يبادر (العدو) الى استجماع قواه.

بقوة. فقال اليزكي (للسلطان): ان هذه المرأة خرجت من صفوف الفرنج، و أصرّت الحضور بين يديك. فطلب السلطان من ترجمانه أن يسألها عن قضيتها.

فقالت: ان اللصوص المسلمين دخلوا البارحة الى خيمتي، و سرقوا إبنتي، و بتُّ البارحة أستغيث الى بكرة النهار. فقيل لي: الملك (تقصد السلطان) ملك رحيم، و نحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما اطلب إبنتي إلا منك*.

رق لها السلطان، و دمعت عيناه، و حرّكته مروءته، و أمر مَن يذهب الى سوق العسكر، يسأل عن الصغيرة: من إشتراها، و يدفع له ثمنها، و يحضرها فما مضت ساعة حتى وصل الفارس و الصغيرة على كتفه، فما كان من الأم المفجوعة حين وقع نظرها عليها إلا وخرّت ((سقطت)) الى الارض تمرّر وجهها في التراب، و الناس يبكون على مانالها، و ترفع رأسها نحو السماء، ولا نفهم ما تقوله، فسُلِّمْت إبنتها اليها، و أعيدت إلى معسكرهم[٩٩].

وكان-رحمه الله- لايرى الاساءة إلى من صَحَبَهُ و إن أفرط في الخيانة، ولقد قُلب ((أبدل)) في خزانته كيسان من الذّهب المصري ((الدنانير الذهب)) بكيسين من الفلوس ((النحاسية))، فما عمل بالنواب شيئاً سوى انه صرفهم من عملهم، لاغير[١٠٠].

---

* من قصص مآسي الحروب.

(٩٩) يفترض الا يليق هذا التصرّف، تصرّف خطف الصغار بالمحاربين المسلمين، ثم عرضهم في سوق معسكرهم للبيع، ولكن الحرب هي الحرب، و أسوأ من هذا التصرف الشائن مازال يحصل، رغم وجود منظمات إنسانية دولية. وربما حصلت أعمال من هذا القبيل قبل و بعد صلاح الدين و في جيوش أخرى، لكن لم تتحدث عنها كتب التاريخ.

(١٠٠) نقول: لايمكن أن يُعدّ ردّ فعل السلطان ردّاً سليماً أو حكيماً، مع لصوص مدّوا أياديهم الملوّثة الى خزانة قائدهم، ولاسيما و ان هذا العمل يصفه القاضي المؤرخ ((خيانة))، خيانة من هُم أصحابه و نوابه ومن المقربين منه، و مهما يكن فان موقف صلاح الدين لا يدخل ضمن موضوع ((مروءة السلطان))، خيانة تحصل خلال حرب متواصلة مع عدوّ. ولم يكن العمل من تدبير شخص واحد، بل قامت به مجموعة من صحبه و نوابه. (د.محسن)

ولقد دخل عليه البرنس أرناط[١٠١]-صاحب الكرك- مع ملك الافرنج (گى. دي. لوزينيان)- اي ملك مملكة بيت المقدس، لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة. وكان قد أمر باحضارهما، و كان هذا (ارناط اللعين) كافراً لعيناً جبّاراً شديداً، وكان قد إجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين و بينهم هدنة، فغدر بها و أخذها، و نكل بهم، وعذبهم، و اسكنهم المطامير (السجون) و الحبوس الحرجه، و اذكرّوه حديث الهدنه، فقال: قولوا لمحمّدكم يخلّصكم.

فلما بلغه-رحمة الله- ذلك الخبر، نذر نفسه انه متى أظفره الله به قتله بنفسه، فلما مكّن الله منه في ذلك اليوم، (يوم حطين) قوي عزمه على قتله، وفاءً بنذره، فأحضره مع ملك بيت المقدس، فشكا الملك العطش، فأحضر له أحد رجال القائد المنتصر قدحاً من شراب[١٠٢]، فشرب الملك عنه، ثم ناوله أرناط، فقال السلطان للترجمان:

((قُل للملك، انت الذي سقيته، و أمّا أنا فما أسقيه من شرابي، ولا أطعمه من طعامي))، قصد-رحمه الله- انّ من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي الا اؤذيه. ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره.

كما أنه أخذ عكّا، و أخرج الأسرى كلّهم من ضيق الأسر، و كانوا زهاء أربعة آلاف أسير، و أعطى كلا منهم نفقةً توصله الى بلده و أهله[١٠٣]. و يختتم ابن شداد قوله: هكذا بلغني على ألسنة جماعة، فأنني لم أحضر هذه الواقعة[١٠٤].

---

(١٠١) الامير ارناط، صاحب حصن الكرك، في جنوبي الاردن الآن، الرجل سيء الصبت، حسب المصادر الاسلامية و الغربية، و اسمه بالفرنسية رينو دى شاتيون Renaud de Chatillon.

(١٠٢) في بعض المضارد (جلاّب-گول آب)، و في أخرى (الماء).

(١٠٣) لايقصد بلده الذي قَدَم منه في اوروبا، ولا أهله، بل يقصد البلد الذي استوطن فيه مع أهله. (د. محسن)

يواصل المؤرخ ذكر مناقب القائد، في عشرته الطيبة و اخلاقه الراقية، و ثقافته (عالماً بعجائب الدنيا و نوادرها، بحيث كان يستفيد منه محاضرُه، مالا يسمع من غيره). كما كان طاهر المجلس، طاهر اللسان، طاهر السمع، فلا يحبّ أن يسمع عن أحد الا الخير، ولا رأيته يشتم، و طاهر القلم، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط.

وعرف السلطان بالوفاء بالعهد، فما أُحضر بين يديه يتيمٌ إلا و ترحّم على آبائه، و جبر قلبه، و أعطاه خبز (راتب) مخلفه، و إن كان له كبيرٌ يعتمد عليه سلّمه إليه، و إلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، و سلّمه الى من يكفله و يعتني بتربيته.

ولم يكن يرى شيخاً إلا و يرقّ له و يعطيه و يحسن اليه، ولم يزل على هذه الأخلاق الى أن توفاه الله الى مستقر رحمته و محال رضوانه.

فهذه نبذة من محاسن أخلاقه و مكارم شيمه، إقتصرت عليها خوف الاطاله و الإسام ((و السأم)) وما سطّرتُ إلا ما شاهدته، او أخبرني الثقة به و حققتُه، و هذا بعض ما إطلعتُ عليه في زمان. خدمتي له، وهو يسيرٌ مّما أطلعَ عليه غيري مَن طالت صحبتهُ، وقدُمت ((زاد زمان)) خدمتُه ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق و الخلال[١٠٥].

(١٠٤) فالمعروف انه التحق بركب صلاح الدين يوسف بعد استرجاع جيشه لمدينة القدس. و ثمة إختلافات بين ما يرويه إثر أسر الملك و الامير ارناط و ما حصل له، و بين ما يرويه مؤرخون آخرون. انظر ابن الأثير (الكامل: ١٠/١٩-٢٠) ابن واصل (مفرّج: ٢/١٩٥) ولهذا أصاب ابن شداد في كلامه بقوله انه لم يكن شاهد عيان.

(١٠٥) النوادر، ص: ٩٤.

هنا ينتهي القاضي المؤرخ ممّا ذكره من مناقب السلطان في مقدّمة كتابه. الا اننا نتحوّل بعد هذا الى صلب كتاب الرجل، لا للكلام عن تحركات صلاح الدين، وقد ذكرنا ذلك في مجموعة من الكتب و البحوث، بل لننقل صحبته لهذا القائد حتى الأيام الاخيرة من حياته الكريمة، اي إلى أن وافاه الأجل.

الأيام الاخيرة من حياة هذا القائد

صار القاضي المؤرخ بدون أحداث الأشهر و الايام الأخيرة بذكر اليوم و الشهر، تلك الايام التي سبقت و أعقبت صلح الرملة. الصلح الذي بات الطرفان بحاجه اليه. فتحت عنوان ((ذكر تجديد حديث الصلح)) يذكر ان السلطان إستدعى أحد رجالاته وهو الحاجب ابابكر العادلي، فحضر عنده، و معه آيبك العزيز و سنقر المشطوب و غيرهم.

فلما حضر هذا الجمع بدأ بحديث فيه الجد و الهزل لما تمتع به من روح المداعبة أحياناً. و نقلوا رأي ريجارد قلب الاسد فيه تعليقاً على حادث جرى في مدينة يافا، ومما قاله-حسب رواية ابن شداد-: ((هذا السلطانُ عظيم، وما في الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه))... ثم قال لابي بكر الحاجب: تُسَلّم على السلطان و تقول له: بالله عليك أجب على سؤالي ((أجب على طلبي)) في الصلح، فهذا (اي الصلح) أمرٌ لابد له في النهاية، وقد هلكت بلادي وراء البحر ((انكلترا))، وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم[١٠٦]. واستمرت الوفود بالتردد بينهما.

لقد عاد الحديث الى المصالحة بين العدويّن، بحسب الشروط التي حددها صلاح الدين يوسف، برغم المتاعب و المصاعب التي واجهته، ولاسيما الخاصة بظروفه الصحية، والأهم هو سقوط عكا المريع بايدي الفرنجة.

أما ما إتفق الطرفان عليه:

١- مدة الصلح ثلاث سنين من تاريخ التوقيع عليه، وهو يوم الثلاثاء/ الثاني و العشرين من شعبان، سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة (نهاية شهر تشرين الاول ١١٩٢م).

٢- تضّم مدينتي الرملة واللّد الى المملكة الصليبية.

(١٠٦) النوادر: ٣٩٠. يعلق محقق الكتاب احمد ايبش على مايدور بقوله. برغم نجاح ريجارد في الحصول على مكاسب محلية قليلة، صار الآن يلح بالرجاء من السلطان في طلب الصلح، نظراً لموقفه المحرج حول ضرورة عودته إلى انكلترا، و مدركاً بأنه لن تجديه مجابهة صلاح الدين يوسف.

٣- تبقى مدينة عسقلان، في جنوبي فلسطين في حالة الخراب، وقد أمر السلطان بتخريبها، بعد سقوط عكا، خشية أن تستولي عليها قوات العدو، و تتخذها قاعدة للهجوم على مصر.

٤- ان تعتبر القلاع التي كانت بحوزة الاسماعيليين ((بلاد الاسماعيلية)) جزءاً من الارض الاسلامية[١٠٧] رغم ما كان بينهم و بين صلاح الدين يوسف من حالة عداء، وصلت الى محاولة إغتياله لاكثر من مرة.

٥- و بالمقابل إشترط الصليبيون إعتبار انطاكية و طرابلس اللتين كانتا لاتزالان بحوزتهم، منذ بدايات حملتهم الاولى، جزءاً من الاراضي التي يواصلون حكمها، لأن صلاح الدين، رغم انتصاراته الباهرة بعد حطين و إستيلاء جيشه على مدن الساحل الشامي، لم يتسنّ له الوقت و القدرة لقتال قوات هاتين المدينتين فبقيتا تحت سيطرتهم.

وتم التوقيع على صلح الرملة، و تنفيذ ما ورد فيه في اليوم التالي، اي يوم الاربعاء، و ليس يم الثلاثاء ((لأنهم-اي الصليبيين- قد أكلوا شيئاً يوم الثلاثاء، و ليس من عادتهم الحلف-اداء القسم- بعد الأكل)).

وبعد أن وقّع الجانب الصليبي، ((حضر الرسل في خدمة السلطان-قدّس الله روحه- و أخذوا يده الكريمة، و عاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة)) كما حلف قيادة الجيش. بينهم الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب اخوه، و اولاده الكبار الملك الافضل نورالدين علي بن يوسف، ابنه البكر و الملك الظاهر شهاب الدين غازي ابرز اولاده (صاحب حلب) و الملك المنصور صاحب حماه، كما وقع على الصلح أشهر قادة جيشه بينهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب و كذلك بدرالدين دلدرم ((يلدرم)).

ثم أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات[١٠٨] و الاسواق: ((ألا أنّ الصلح قد إنتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل الى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل)).

(١٠٧) النوادر، ص٤٠١.

و أذاع-رحمة الله عليه- أن طريق الحج قد فتح من ديار الشام، و وقع له عزم الحج في مجلس كنتُ حاضراً فيه.

و يصف ابن شداد هذا اليوم التاريخي بـ((اليوم المشهود)) و يقول: أصاب الناس من الطائفتين الاسلامي و المسيحي، ((من الفرح و السرور مالا يعلمه إلا الله تعالى)) و يضيف القاضي المؤرخ ((والله العليم إن الصلح لم يكن من إيثاره، فأنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح:

((اخاف أن أصالح، و ما ادري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدوّ، وقد بقى لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم، و ترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تلة-يعني حصنه- و يقول: ((لا انزل، فيهلك المسلمون)).

يضيف ابن شداد: فهذا كلامه، و كان كما قال، لكنه-اي السلطان- رأى المصلحة في الصلح لسآمه العسكر، و مظاهرتهم بالمخالفة (مظاهر التمرّد في جيش صلاح الدين!) وكانت في المصالحة مصلحة للمسلمين-حسب قول المؤرخ-حسب علم الله تعالى، فانه إتفقت وفاته بعيد الصلح، ولو إتفقت وفاته في أثناء المعارك لكان الاسلام في خطر، فلم يكن الصلح إلاّ توفيقاً و سعادة له، رحمة الله عليه.

بعد عقد الصلح صار بوسع الطرفين زيارة مدن الطرف الآخر، و إختلط العسكران. ((فذهبت جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة، و وصل خلقٌ عظيم من العدو الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك)) و ارسل معهم الحراس يحفظونهم حتى يعيدوهم الى يافا، و انزعج من ذلك الفرنج. ((وكان غرض السلطان من ذلك أن يقضوا و طرهم ((حاجاتهم)) من الزيارة، و يرجعوا الى بلادهم، فيأمن المسلمون شرّهم)).

(١٠٨) لفظ تركي معرب، و يعني الخيمة او المعسكر. انظر د. حسان حلاق و د. عباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات، ص٢٣٠.

ولما علم الملك ريجارد قلب الأسد كثرة زوّار بيت المقدس، صَعُبَ عليه ذلك، و ارسل إلى السلطان يطلب منه منع الزوار[١٠٩]، و اقترح الملك الا يؤذن لأحد بالزيارة إلا بعد جلبِ علامة او كتابة من جانبه ولما علم الزوار الفرنجه ذلك عَظُمَ عليهم الأمر و إنزعجوا، إلا أنهم لم يعبأوا بموقف الملك، و واصلوا زيارتهم فصار يصل منهم كل يوم أعداد غفيرة، بينهم: كبار الفرنجة ((مُقدّمون، و أوساط، و ملوك متنكرون)).

و الأدهى من ذلك فان سلطان المسلمين شرَع في إكرام ضيوف المدينة، و مدّ الطعام لهم، و مباسطتهم ((المزاح معهم)) و محادثتهم. ثم أخبرهم بعلمه باستنكار الملك لأمر الزيارة. و لكيلا يؤثر موقفه المتسامح مع الزوار على علاقته مع الملك، بادر بالاعتذار منه بأن قوماً قد وصلوا من ديار بعيدة، ((و يسّر اللهُ لهم زيارة هذا المكان الشريف، لا استحل منعهم!))[١١٠].

ثم إشتد مرض الملك، فرحل ليلة الاربعاء تاسع عشرين شعبان من عام تسع و ثمانين و خمسمائة (نحو او اخر ايلول من عام ثلاث و تسعين و مائة و الف)، و قيل انه مات في الطريق الى انكلترا.

(ذكر عودة العساكر الاسلامية الى أوطانهم)

بعد أن إستقرّت القواعد، أعطى السلطان العساكرَ دستوراً، طلبَ منهم فيه أن يعودوا إلى أوطانهم. ((فكان اول من سار عسكر إربل)) بقيادة الملك المعظم مظفرالدين

(١٠٩) ارى عجباً من موقف الملك، و لاسيما و ان قوة عاطفتهم الدينية، و تعلّقهم بهذه المدنية دفعتهم الى مغادرة حياتهم في اوطانهم في اوروبا، و التضحية بأسرهم و مصالحهم و راحتهم، و قطع الاف الأميال و التوجه الى ارض المقدسات، و الآن يمنعهم الملك من الزيارة، في حين سمح لهم سلطان المسلمين بزيارة المدينة المقدسة. (د. محسن)

(١١٠) النوادر: ص٤٠٥.

كوكبوري، فعاد في مستهل شهر رمضان المبارك. ثم عاد بعده عسكر الموصل و سنجار و الحصن.

ثم قرر القائد الملهم ان يؤدّي فريضة الحج، و قوي عزمه على براءة الذمة منه. يقول القاضي المؤرخ: و هذا ما توقعّتُهُ، ((و بدأتُ بالاشارة به في يوم تتمّة الصلح)) فكانت رغبته الجامحة ان يتم ذلك، و أمر رجالاته في ديوان مملكته ((ان كل من عزم على الحج من العسكر يثبت إسمه، حتى يُحصى عدّد من يدخل معناه في الطريق)) و كتب قائمة ((جرائد)) بما يحتاج اليه في الطريق من الخلع ((الهدايا)) و الازواد ((القوت/ الطعام)) و غير ذلك، و سيّرها إلى البلاد ليعدّوها.

ثم ودّع الملك الظاهر شهاب الدين غازي والده السلطان، و قبل وجهه و مسح يده على رأسه، و إنصرف برعاية الله، و رافقه القاضي بهاءالدين ابن شداد في بعض الطريق. وقد أوصاه والده، بعبارات رقيقة، الا ان وصيّتة لم تطبق-لا سابقاً و لا لاحقاً- بسبب طبيعة و مستلزمات السلطة و مستحقات الحكم، و مما أوصاه:

((اوصيك بتقوى الله تعالى، فانها-اي التقوى- رأس كل خير، و آمرك بما أمرك الله به، فانه سبب نجاتك و أخذّرك من إراقة الدماء، و الدخول فيها و التقلد ((التمسّك)) لها، فانّ الدم لاينام، و أوصيك-يا ولدي- بحفظ قلوب الرعية و النظر في أحوالهم، فأنت أميني و أمين الله عليهم، و اوصيك بحفظ قلوب الأمراء و أرباب الدولة و الاكابر، فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة (مراعاة) الناس، ولا تحقد على أحد، فان الموت لايُبقي أحداً، و احذر ما بينك و بين الناس، فإنه لا يُغفر إلا برضاهم، وما بينك و بين الله يغفره بتوبتك اليه فانه كريم))[١١١].

تأهّب السلطان للمسير إلى الديار المصرية، و زاد شوقه الى الحج، إلا أن غايته فيه لم نتحقق، و كان هذا يشكل همّاً كبيراً لديه ((فكان من اكبر المصالح التي فاتته)) حسب قول المؤرخ.

(١١١) النوادر، ص٤٠٨.

في طريق رحلته الى مصر-التي لم تكتمل- دخل محروسة دمشق، و أقام بها أياماً. و أمرني- يقول القاضي- بالمقام بالقدس الشريف الى حين عودته لعمارة بيمارستان ((مشفى))، و ادارة المدرسة وقد بناهما في القدس، ثم وصل إلى نابلس، فلقيه خلق عظيم يستغيثون على الامير المشطوب الهكاري، و يتضوّرون إليه سوء رعايته لهم.

بعد أيام قليلة وصل الى حضرته بهاءالدين قراقوش، بعد ((إنفكاكه يحرّره من ربقة الاسر، ففرح بلقائه السلطان فرحاً شديداً، و كان لقراقوش حقوق كثيرة على السلطان و الاسلام)) و إستأذن السلطان-رحمة الله عليه- في المسير الى دمشق لتحصيل حقوقه ((اقطاعيته فيها))[١١٢].

ولدى وصول السلطان الى بيروت، وصل الى خدمته البرنس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية بين عامي (٥٥٨-٥٩٨هـ/١١٦٣-١٢٠١م) فرحّب به السلطان و احترمه و باسطه ((مزح معه))، و أنعم عليه اراضي بسهل العَمق و ازرغان و مزارع تغلّ (تنتج ما قيمته) خمسة عشر الف دينار[١١٣].

ثم عاد الى محروسة دمشق و فيها اولاده الملك الأفضل علي و الملك الظاهر غازي و الملك الظافر خضر، و اولاده الصغار. و كان يحب هذه المدينة[١١٤] و يؤثر الاقامة فيها اكثر من سائر المدن.

(١١٢) النوادر، ص٤١٠.

(١١٣) العَمق سهل داخلي في لواء (محافظة) الاسكندرونة، الى الشمال الغربي من سوريا ((والان جزء من الأراضي التركية، اما ازرغان فهو نهر في منطقة الجزيرة العليا بناحية الدرباسية، ينبع في الاراضي التركية و يصبَ في نهر الخابور.

(١١٤) ولهذا بلغت دمشق في عهده الى مستوى راق من العمران، فأقام فيها العديد من المنشآت العلمية و الخيرية كالمدارس و دور القرآن و الحديث، و عُمِّرت قلعتها و أسوارها و مرافقها العامة، و ماتزال أبنيتها العديدة قائمة. حتى الآن تشهد بعظمة هذه الدولة. وقد نشر محقق هذا الكتاب أحمد ايبش بحثاً وافياً عن (دمشق في العهد الايوبي).

كما وصل الى هذه المدينة الملك العادل سيف الدين ابوبكر، اخوه، و خرجا و معهما اولاده للصيد وهم يتفرّجون على المشهد في موطن الصبا-حسب وصف المؤرخ- و كأنه وجد راحة إفتقدها أيام المعارك الطويلة و سهر الليالي. ((وما كان ذلك الا كالوداع لاولاده و مراتع تنزهه أيام شبابه، وهو لايشعر-رحمة الله عليه- و نسي عزمه للوصول الى مصر))

واستحضرني السلطان في الخميس رابع عشر من صيف (٥٨٩هـ) فحضرت عنده، و عنده اولاده الصغار و سأل عن الموجودين من الضيوف فقيل له: ((رسل الفرنج، و جماعة من الامراء و الأكابر)) فاستحضر رسل الفرنج الى مجلسه، و كان له ولد صغير دعاه (ابوبكر)[١١٥] وكان كثير الميل اليه (يحبّه كثيراً) ((فلما وقع بصر الصغير على الفرنج و رأى أشكالهم، و حلق ذقونهم، و قصّ شُعورهم، وما عليهم من الثياب غير المألوفه (لدى المسلمين) خاف منهم و بكى، فاعتذر اليهم و صرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم!)).

يقول ابن شداد: سألني السلطان: هل أكلتَ اليوم شيئاً؟. ثم قال: احضروا لنا ما تيسّر فاحضروا إرزاً بلبن وما يشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة. فأكل-رحمة الله عليه- و كنت اظنّ انه ما عنده شهية. وكان في هذه الايام يعتذر للناس (عن الاكل معهم) لثقل في حركته، و كأن بدنه كان ممتلئاً و عندهُ تكسّل.))

فلما فرغنا من الطعام-يقول القاضي المؤرخ- سألني السلطان: ((ما الذي عندك من خبر الحجاج؟)). فأجبْتُهُ: ((إجتمعتُ بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوَحل (الطين) لدخلوا اليوم، لكنهم في غد يدخلون)) فقال: ((نخرج إن شاء الله إلى لقائهم)). وتقدّم بتنظيف طرقات

(١١٥) في حين يذكر المؤرخ جمال الدين محمد (ابن واصل) في كتابه (مفرج الكروب في اخبار بني ايوب) الجزء الثاني ص٤٢٥، نقلاً عن ابي شامه في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الاول، ص٢٨٨) وهو ينقل من المؤرخ المعاصر عمادالدين الكاتب الاصفهاني: ان ابن صلاح الدين الصغير هذا ولد بحرّان بعد وفاة السلطان ولعل هذا كان ضمّن أوهام، او أخطاء أحد المؤرّخَين المعاصرين (ابن شداد او عمادالدين).

الحجاج من المياه[١١٦]، فالسنة هذه كانت سنة كثيرة الأنداء (المطر)، وقد سالت المياه في الطرقات كالأنهار.

ثم استقبل الحجاج وكان فيهم سابق الدين و قرال الباروقي[١١٧]، وكان كثير الاحترام للمشايخ، قدّس الله روحه، فلقيهم، فنظرت اليه، فلم أجد عليه (كزا غُنده)[١١٨] وما كان له عادة يركب فرسه بدونه. و حدّثتُه في إهماله، اي كان على السلطان ان يتدرع لحماية نفسه من مخاطر محاولات إغتياله، كما جرت من قبل مع خصومه من الاسماعيليين، او ما صار يطلقه عليهم خصوصه (جماعات الحشيشية)، و كانت المحاولة الاولى عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م، أثناء حصاره لمدينة حلب، و الثانية في ١١ ذي القعده (٥٧١هـ/١١٧٦م) أثناء حصاره لعزاز، و تمكن فيها أخدهم من جرحه. فطلب كزا غُنَدهُ فلم يكن (الزردكاش)[١١٩] موجوداً، فوجدت في ذلك أمراً عظيماً، و قلت في نفسي: ((سلطان يطلب مالابُدَّ منه في عادته، ولايجده)) و أوقع الله في قلبي تطيُّراً ((تشاؤماً)) بذلك[١٢٠].

(١١٦) لانرى امراً معقولاً، ان يقوم سلطان المسلمين، و قائد حركة التصدي للحملات الصليبية، بتنظيف طرقات الحجاج من الرحل وهو في مثل هذا العمر و الحالة، وفي الاسبوع الأخير قبل رحيله، في وقت كان تحت أمرته الآلاف من الرجال كان بوسعه ان يأمرهم بالقيام بهذا العمل. كما كان بوسع القاضي المؤرخ ان يقول: انه شارك رجاله في تنظيف طرق الحجاج، ليزداد أجره عندالله، ويحتسب.

(١١٧) يقول ايبش: اسم فرال Kiral تركي و يعني مَلك.

(١١٨) يقول ايبش: كزا غنُد: كلمه كردية تعني الدّرع.

(١١٩) زَرد كاش: المسؤول عن حفظ الدروع و الاسلحة في بلاط السلطان و الكلمة فارسية الأصل. انظر: النوادر، ص٤١٥/ هامش٤. وانظر د. حسان حلاق. المعجم الجامع. مذكور ص١٠٦.

(١٢٠) النوادر: ص٤١٥.

ذكر مرضه – رحمة الله عليه

ما أن إنتصفت ليلة السبت سادس عشر صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة، حتى أصابته حُمى صفراوية، كانت في باطنه اكثر منها في ظاهره ولم يظهر ذلك للناس، ثم زرناه أنا و القاضي الفاضل (عبدالرحيم البيساني، ٥٢٩-٥٩٦هـ/١١٣٤-١١٩٩م)[١٢١]. ثم دخل ولده البكر الملك الأفضل، وطال جلوسنا عنده، و اخذ يشكو من قلقه بالليل، وقد أصابه الأرق.

وأثناء تناول الغداء، وقد مُدّ الطعام و ولده الملك الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفتُ (غادرتُ المكان) إذ لم تكن لي قوة تحمل الوضع و الجلوس، إستيحاشاً. و بكى جماعة (تفاؤلاً) بجلوس ولده موضعه[١٢٢].

كان مرضه في رأسه، ومن إمارات (علامات) انتهاء العُمر غيبة طبيبه، الذي كان قد ألِفَ (إعتاد) مزاجه. و رأى الأطباء فصدهُ ففصدوه، قاشتدّ مرضه، وقلت فاشتد رطوبات بَدَنِه، و كان يغلبه اليُبس (الجفاف)، ولم يزل المرض تزداد و طأته في اليوم الرابع[١٢٣].

(١٢١) ذكرنا انة كان المستشار الاول في دولة صلاح الدين يوسف، كان يكتب الوثائق و يبرم المعاهدات، وصفه شاعر العصر المعروف عمارة اليمني بأنه شجرة مباركة متزايدة النماء، أصلُها ثابت و فرعها في السماء. قال عنه صلاح الدين أمام جمع من عسكره: أني لم أنتصر بسيوفكم لوحدها، بل انتصرتُ بقلم القاضي الفاضل كذلك. ولد بعسقلان و توفي في مصر. جُمِعت رسائله البليغة في كتاب قام بدراستها و تحقيقها الاستاذ الدكتور علي نجم عيسى معتمداً على نسخة مكتبة الأوقاف في الموصل، و طبعته دار الكتب العلمية-بيروت-٢٠٠٥. و يضمّ الكتاب (١١٠) رسالة من رسائله، اضافة ال حِكمِهِ و أمثاله و نظمه، و يقع الكتاب في (٣٢٠) صفحة،كما الف د. احمد يدوي كتاباً عنه طبع في مصر تحت عنوان (القاضي الفاضل) دراسة نماذج، و د. كمال عبدالفتاح السامرائي (القاضي الفاضل شاعراً) طبع في دار تموز دمشق سنة ٢٠١٢.

(١٢٢) كان عليه أن يقول (تشاؤما)، في إشارة الى رحيل القائد، و جلوس ولده في موضعه.

(١٢٣) كما يبدو-يقول ناشر الكتاب- كان السلطان يعاني من ارتفاع ضغط الدم الشرياني، ومن نقص في التروية الدموية، و هذا كان السبب في يبس أطرافه و خَدَرِها.

في اليوم السادس من مرضه أجلسناه، و أسندنا ظهره الى مخدّة، و أحضر أحدهم ماء ليشربه بعد شرب مليّن، فشربه و وجده حاراً، فشكا من حرارة الماء، فغيرّوه و عرضوه عليه ثانية، فشكا من برده هذه المرة[١٢٤]، لكنه لم يغضب ولم يصخب-رحمة الله عليه- ولم يقل سوى هذه الكلمات: ((سُبحان الله ألا يمكن لأحد تعديل الماء؟)).

فخرجنا أنا و القاضي الفاضل يقول لي: أنظر إلى هذه الأخلاق التي أوشك المسلمون على مفارقتها، فوالله لو يحصل هذا مع أناس أخرين لضَرَبَ رأسَ من أحضرَ الماءَبالقدح.

إشتدّ المرضُ في اليوم السابع و الثامن، ولم يزل يشتدّ، و تغيّب ذِهنه. وفي اليوم التاسع حدثت به رعشة، و إمتنع من تناول المشروب، و اشتد الرجف (الخوف) في البلد (في مدينة دمشق)، و خاف الناس، اي تجار الاسواق، فنقلوا أقشمة محلاتهم الى دورهم، خشية حدوث أعمال النهب في مثل هذه الحالات، بسبب فقدان الأمن، و غشي (أصاب) الناس من الكآبة و الحزن ما لايمكن وصفه.

ولقد كنتُ أنا و القاضي الفاضل نقعد في كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثه او قريب منه، ثم نحضر في باب الدار (دار السلطان)، فان وجدنا طريقاً للدخول دخلنا و شاهدناه و انصرفنا، و إلا تعرّفنا أحواله و انصرفنا. وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا الى بيوتنا حتى تُقرأ أحواله من صفحات (تعابير) وجوهنا.

في اليوم العاشر من مرضه حُقِن دفعتين، و ارتاح و تحسن وضعه، و تناول من ماء الشعير مقداراً جيداً و فرح الناس فرحاً شديداً، ثم أتينا باب الدار، وطلبنا من ولده اليافع الملك المعظم تورانشاه[١٢٥] إخبارنا عن صحته، فعاد يقول: ((إن العَرَقَ قد أخذ في ساقيه))، فشكرنا الله تعالى على ذلك، والتمسنا منه أن يمسّ بقية بدنه، و يخبرنا بحاله في العرق، فافتقد بدن والده، ثم خرج ليعلن ان العرق سابغ (زائد).

(١٢٤) أمر غير معقول هذا التعامل مع سلطان عظيم، أيام مرض ألَمّ به، و مات بعد أيام.

(١٢٥) تورانشاه سمي باسم عمه. كان له من العمر لدى وفاة والده اثني عشر ربيعاً. مفرج الكورب ٤٢٥/٢، وهو من مواليد مصر سنة سبع و سبعين و خمسمائة.

في اليوم الحادي عشر من مرضه، وهو يوم الثلاثاء السادس و العشرين من صفر حضرنا الباب، و سألنا عن الاحوال، فأخبرنا أن العَرَقَ أفرَطَ حتى نفذ (تسرّب) في الفراش ثم في الحصير، و نزل الى الارض، و أن اليُبس (الجفاف) قد تزايد تزايداً عظيماً، و خارت قوّته، و ادرك الأطباء ما سيحصل.

ذكر تحليف (أداء القسم) الملك الافضل الناس

لما رأى الملك الافضل[١٢٦] ما حل بوالده، و تحقيق اليأس منه، شرع في تحليف الناس، للحيلولة دون تمرّد قادة الدولة على السلطان الجديد، ممّن تسوّل له نفسه إعلان الانفضال عن القيادة. و نسخة اليمين المحلوف ((نص أداء القسم)) كانت على الشكل التالي:

(إنني من وقتي هذا قد أصفيتُ نيّتي، و أخلصتُ طويّتي ((ضميري)) للملك الناصر (صلاح الدين يوسف) مُدّة حياته، و إنّني لا ازال باذلاً جهدي في الذّبّ (الدفاع) عن دولته بنفسي و مالي و سيفي و رجالي، ممتثلاً (مطيعاً) أمره، واقفاً عند مراضيه. ثم من بعده لولده الملك الافضل (نورالدين علي)، والله إنني في طاعته، و أذبّ عن دولته و بلاده بنفسي و مالي و سيفي و رجالي، و أمتثل أمره و نهيه، و باطني و ظاهري في ذلك سواءً، والله على ما أقول وكيل))[١٢٧].

و اول من أدى القسم كان سعدالدين مسعود، أخو بدرالدين مودود[١٢٨]. و يختتم ابن شداد قائمة الاسماء بالقول: ((ولم يحضر أحد من الامراء المصريين، ولم يتعرّض لهم)).

(١٢٦) كان عمره يوم ولي الملك بعد أبيه نحواً من أربع و عشرين سنة، فمولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس و ستين و خمسمائة (حزيران ١١٧٠م).

(١٢٧) النوادر، ص٤٢٠.

(١٢٨) ترى أن لاداعي لاستعراض أسماء بقية الأمراء و قادة الجيش و اصحاب القلاع، ولمن يرغب معرفتهم يراجع (النوادر) ص٤١٩-٤٢٠.

ذكر وفاته-رحمة الله عليه - و قدّس الله روحه و أحسن خلفه للمسلمين

في الليلة الثانية عشرة من مرضه، زاد وضعه سوءاً وضَعُفت قوّتُهُ، و حال وجود النسوة بيننا و بينه، وقد وصلنا الى منزله أنا و القاضي الفاضل و القاضي محي الدين بن زكي الدين قاضي قضاة دمشق، ولم يكن من عادته الحضور في ذلك الوقت.

وعرض علينا الملك الافضل أن نبيتَ عنده، فلم يوافق القاضي الفاضل على رأيه، لأن الناس المتجمهرين أمام القلعة إعتادوا أن ينتظروا نزولنا من القلعة، فأخاف أن يقع الصوت (الفوضى) في المدينة، ويبدأوا بأعمال النهب، إن لم ننزل. و تقرر استحضار الشيخ ابي جعفر إمام جامع الكلاسة، يبيت في القلعة، حتى إذا إحتضر-رحمة الله عليه- بالليل حضر عنده، و ذكّرهُ بذكر الله و بالشهادة، و نزلنا نحن وكل منّا يودّ فداء السلطان بنفسه.

بات تلك الليلة و الشيخ يقرأ عنده القران، و كان ذهنُهُ غائباً منذ الليلة التاسعة من مرضه، لايكادُ يفيق إلاّ في أحايين قليلة. وذكر الشيخ انه لما إنتهى الى قوله تعالى ((هو الله لا إله إلا هو عالِمُ الغيب و الشهادة))﴿من سورة الحشر-٢٢﴾ سمعه يقول: ((صحيح))، و يعلق القاضي المؤرخ: وهذه يقظة في وقت الحاجة، و عناية من الله تعالى به، فللّه الحمدُ على ذلك.

و توفي القائد بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة (٣/آذار-مارت/١١٩٣م)، و بادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح (بعد الفجر) بالوصول فحضر وفاته، أما القاضي المؤرخ فوصل بعد أن أنتقل سلطان المسلمين إلى رضوان الله تعالى.

وكان يوم الرحيل يوماً لم يُصب المسلمون و الاسلام بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون، و غشي القلعة و البلد و الدنيا من الوحشة مالا يعلمها إلا الله تعالى. و بالله لقد كنتُ أسمعُ من بعض الناس أنهم يتمنّون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم، وما سمعتُ هذا الحديث الا على ضربٍ من (من قبيل) التجوّز و الترخص إلى ذلك اليوم، فإني علمتُ من نفسي و من غيري أنه لو قبل الفداء لفُدي بالنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل علي للعزاء في الايوان الشمالي، اي بالقلعة التي حُفظ بابها للحيلولة دون دخول عامة الناس، إلا الخواص من الأمراء و المعمّمين، وكان يوماً عظيماً قد شغل كلّ إنسان ما عنده من الحزن و البكاء عن أن ينظر الى غيره، و حُفظ مجلس العزاء عن أن يُنشد فيه شاعر او يتحدث فيه واعظ و كان اولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوسُ تزهق لهول منظرهم، و لاسيما و أن السلطان قد لقي وجه ربه غير مسنٍّ، كما يقول أحمد ايبش، عن عمر يُناهز الخامسة و الخمسين (٥٧ سنة قمرية)، فلايلام في الحزن عليه أحد، ناهيك عما أرساه في قلوب الناس من المحبة و الاحترام.

أُخرِجَ نَعشُهُ بعد صلاة الظهر-رحمة الله عليه- في تابوت مسجّى ((مغطىّ)) بثوب فوط، و كان جميع احتياجات التكفين على حساب القاضي الفاضل، و ارتفعت الاصوات عند مشاهدة النعش، و عَظم الضجيج، حتى ان العاقل يتخيل ان الدنيا كلها تصحيح بصوت واحد، و غشي ((أُغمي عليهم)) من البكاء و العويل ماشَغَلهم عن الصلاة، و صلى عليه الناس ارسالاً، و كان اوّل من أَمّ بالناس القاضي محي الدين بن الزكي.

ثم اوصلوا النعش الى الدار التي في البستان و دفن في الصُفّة الغربية منها، و أنزل الى حفرته قريباً من صلاة العصر. ثم جلس ولده الملك الظافر (مظفرالدين خضر) ليتقبل العزاء، و يسكن قلوب الناس، ولم تحصل أعمال النهب و الفساد لأن حزنهم و بكاءهم على رحيل قائدهم جعلهم لايفكرون بمثل هذه الاعمال الشائنة، فما وجِدَ قلبٌ الاحزيناً و لاعينٌ إلاباكية، ثم رجع الناس الى بيوتهم وقد ودّعوا سلطانهم العظيم.

وبدأ ابنه الملك الأفضل علي يراسل عمه الملك العادل و إخوته يخبرهم بالحادث. وفي اليوم التالي جلس للعزاء جلوساً عامّاً. و تم فتح باب القلعة للفقهاء و العلماء و الوعاظ، ولم ينشد شاعرٌ حتى للرثاء. ثم إنفضّ المجلس في ظهير اليوم، و استمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن، و طلب المغفرة له. ثم ذكر القاضي المؤرخ بيتاً من الشعر في كتابه، من قصيدة للشاعر ابي تمام، كان قد قالها بحق خليفة زمانه المأمون العباسي ابن هاورن الرشيد:

ثم إنقَضّت تلك السنونُ و أهلُها - فكأنها و كأنهم أحلامُ

وفي ختام كتابه يكتب القاضي المؤرخ هذا النص: ((هذه أخبار الملك الناصر ابي المظفر يوسف* بن ايوب-رحمة الله عليه- فرغتُ من جمعها يوم وفاته[١٢٩]. و قصدتُ بذلك وجه الله

* طيلة الكتاب لايذكر المؤلف اسم هذا القائد الحقيقي، الا هنا، كما لم يذكر اسم الشهرة الذي عرف به في العقود الأخيرة (صلاح الدين الأيوبي)، حين صار اسم والده (ايوب) لقباً له و أشتهر به. فذكر هنا اسمه و إسم والده (يوسف بن ايوب)، و في ثنايا الكتاب يكتفي بذكر الموقع الذي تسنّمه (السلطان) أو (لفظ: رحمة الله عليه، قدّس الله روحه، رحمه الله.. الخ، و كأن هذه الالفاظ صارت اسمه، نظراً لكون المؤلف صنف كتابه بعد رحيل (يوسف) ناهيك عن انه لم يذكر اسم قبيلته الروادي الهذباني، كما لم يذكر ماينم على كرديته، لذا بات من اللاتق عدم الصاق (الايوبي) باسمه، اولاً، ولكن لايمكن القفز على كنيته (صلاح الدين) ثم إضافة إسمه الحقيقي إليه (يوسف)، ومن الضروري أيضاً ذكر ذلك في كل ما يكتب عنه وقد إرتأينا أن نبين إسمه بهذه الصيغة في السنوات الاخيرة (لكي لايضيع منّا صلاح الدين الأيوبي!)، ويعود اليه اسمه الذي عرف به ((يوسف بن أيوب)) مع أضافة الكنية اليه. نعم يعود اليه الاسم الذي عرف به في المصادر المعاصره له او المصادر التي كتبت عنه بعد رحيله بعقود، و ليس ما أُريدَ لاسمه أن يكون، لينسجم مع تعريب القادة غير العرب.

(١٢٩) يصدق أحمد ايبش، محقق و ناشر الكتاب حين يعلن: هذا نص هام يشير الى التاريخ الذي فرغ فيه المؤلف-ابن شداد- من تصنيف كتابه هذا. وان كان-كما رأينا- قد تابع ((واصل)) فيه بالتعديل و الاضافة الى ما بعد هذا التاريخ بـ(٣٧) عاماً، كالترحم على بعض أفراد ((رجال)) البيت الأيوبي ممن وقعت((حصلت)) وفاتهم متأخرة ((فيما بعد)) في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كما ذكرنا.

وكذلك يذكر القدس الشريف بعبارة ((يسّرالله فتحها)) كما في ص٣٣١. مما يدّل على ان هذه العبارة كتبت في عام ٦٢٥هـ/١٢٢٩م) او بعده. وكانت مدينة القدس قد سُلّمت في هذا العام للمسيحيين (للآنين) بموجب معاهدة سلام بين الملك الكامل محمد بن الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب من جهة و بين الامبراطور الالماني فريدريك الثاني قائد الحملة الصليبية الخامسة. و بقيت المدينة في ايديهم مدة (١٥) عاماً، الى أن انتزعها منهم الخوارزميه عام (٦٤٢هـ/١٢٤٤م).

تعالى في حثّ الناس على الترحم عليه، و ذكر محاسنه والله يحسن خلافته من بعده، و يجزيه ماهو أهله، بمحمد و آله، و حسبنا الله و تعم الوكيل.

موضع قبر السلطان

ذكر كاتب سيرته ان نعش القائد أعيد الى الدار التي في البستان إلا انه ثم نقله الى قلعة دمشق، و بقى مدفوناً فيها، ثم يذكر ابن خلكان الذي عاش في هذه المدينة طويلاً بصفته قاضياً: أن السلطان بقي مدفونا بقلعة دمشق الى أن بُنيت له قبة في شمالي الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق[١٣٠]، ولها بابان أحدهما الى الكلاسة و الآخر في زقاق غير نافذ، وهو يجاور المدرسة العزيزية. قلت[١٣١]: ولقد دخلت الى هذه القبّة، و قرأت عنده و ترحمت عليه، و أحضر لي القيم و متولي القبة بقجة فيها ملبوس بدن السلطان، و كان في جملته قباء[١٣٢] أصفر قصير و رأس كميهِ بأسود فتبركت به. ثم نقل من مدفنه بالقلعة الى هذه القبّة في يوم عاشوراء، سنة اثنين و تسعين و خمسمائة (١١٩٠م)... ثم ان ولده الملك العزيز عمادالدين عثمان ابن يوسف (وقد صار صاحب مصر اثر وفاة والده السلطان) لما أخذ دمشق من أخيه الملك الافضل (نورالدين علي/ اكبر اولاد السلطان) بنى إلى جانب هذه القبة مدرسة هي المدرسة العزيزية، ووقف عليها وقفاً جيداً. و للقبة شباك يشرف على هذه المدرسة، وهي أهم مدارس دمشق[١٣٣].

(١٣٠) المقصود هو الجامع الأموي الشهير في هذه المدينة الذي كان كنيسة من قبل.

(١٣١) اي يقول إبن خلكان.

(١٣٢) ثوب يلبس فوق الملابس.

(١٣٣) وفيات الاعيان: ٢٠٦/٧.

قال مولانا الصاحب المصنّف، أدام الله علوّه:

ذكر المدن و الحصون التي يسر الله فتحها على يديه-رحمة الله عليه- من ديار الفرنج خذلهم الله تعالى من سنة ثلاث و ثمانين الى سنة ست و ثمانين (و خمسمائة)[١٣٤].

طبرية على بحر الأردن بالسيف، عكّا على البحر الكبير (يقصد البحر المتوسط) او (بحر الروم كما كان يسمى) بالأمان، حيفا على البحر ((نفسه)) بالأمان، الناصرة التي تنسب إليها النصارى، الرّملة، قيسارية بالسيف، ارسوف بالأمان، يافا بالسيف (مدينتها)، عسقلان بالأمان، غزّة بالأمان، الدارم، صيدا على البحر، بيروت بالأمان، جُبيل، هونين، جبلية، تبنين، أنطرسوس ((دون أخذ برجها)) بالسيف، جبلة ((مدينتها بالسيف و قلعتها بالأمان، اللاذقية ((مدينتها بالسيف، و قلعتها بالأمان)) السُّرفَند، مدينة القدس الشريف، خلّصها الله تعالى، نابلس، البيرة بأرض القُدس، صفورية، الطور، حصن دبورية، الفولة، حصن عَفربَلا، حصن جنين، سَفسَطية، كوكب حصن عفري ((شمال القدس))، بيت لحم، حصن العازرية ((بأرض القدس)) البرج الأحمر ((قريباً منه)) حصن الخليل ((عليه السلام))، بيت جبرين، تل الصافية، حصن مَجدل يابا، حصن الجيب الفوقاني، الجيب التحتاني، النطرون، الحصن الأحمر، لدّ بأرض الرملة، قلنوسة ((قريباً منها))، يُبنى، القاقون و القيمون، قلعة الكرك ((بعد حصار سنة و نصف)) قلعة الشوَبكَ ((بعد حصار سنتين))، قلعة السَّلع، الوعيرة، قلعة الجمع، قلعة الطفيلة، قلعة الهُرمز ((جميع ذلك في وادي موسى و السَّراة، قلعة صفد، حصن يازور، شقيف أرنون، حصن إسكندرونة ((بين صور و عكا))[١٣٥]، قلعة أبي الحُسن ((بأرض صيدا))، صيدا أيضاً، حصن بلدة بالساحل الأعلى، المرقية ((على البحر))،

(١٣٤) هذا الموضوع من إضافة أحد النساخ دون أن يذكر إسمه، وقد كتبه الناسخ في حياة (قبل وفاة) ابن شداد.

(١٣٥) المقصود ليس ثغر الاسكندرونة في أقصى شمال بلاد الشام (سورية) على خليج السويداء ((ضمن أرض تركية حاليّاً)).

حصن يَحمور بأرض عكا، بانياس بين جَبلة و المرقب، صهيون، بلاطنس، حصن الجماهرية، قلعة العيد، بكّاس، الشغر، بُكسرائيل، السُرمانية، قلعة برزية، در بساك، بَغراس ((قريباً من أنطاكية))، الدامور بأرض بيروت، و السَّرفند ((قريباً من صَيدا))[١٣٦].

ابن شداد و رسائل القائد

نرى ان الضرورة تقضي ان ندوّن بعض ملاحظاتنا عن هذا الكتاب. لعل أبرز ما نودّ ان نذكره هو ان القاضي المؤرخ كان مقصراً في إبراز (عدم إبرازه) جوانب، أقل ما يقال عنها انها جوانب لها أهميتها، إن لم نقل مهمة جداً، لاستكمال صورة أحداث تلك الأيام، ولاسيما صورة تاريخ صلاح الدين يوسف، و صورة رجالات عصره*.

و أبرز تلك الجوانب-كما نرى- هو مراسلات القائد مع الأطراف و الجماعات المختلفة. ربما يأتي الجواب، في محاولة للعثور على عذر يبرّر هذا القصور، هو أن إبن شداد لم يلتحق بركب السلطان إلا بعد انتصاره في معركة حطين و استرجاع بيت المقدس، و انه لم يكن بمعية الركب حين عكف كبار رجالات ديوان الرسائل بكتابة تلك الرسائل البليغة قبل حطين.

إلاّ أن هذا العذر سرعان ما يتهاوى لسببين قي الأقل، او لهما: ان رسائل السلطان توالت كتابتها، و إرسالها إلى الأطراف و الجهات بعد التحاق إبن شداد بدولة صلاح الدين يوسف بل و صارت ترسل الى أطراف أخرى جديدة، مثل مراسلاته لملك دولة الموحدين في المغرب الاقصى أمير المسلمين يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن، الذي راسله أثناء حصار عكا

(١٣٦) النوادر، ص: ٤٢٥-٤٢٦.

(*) فدراسة و عرض هذه الرسائل المبثوثة في كتب عديدة، عمل جاد و مهم، اذ لايمكن دراسة و فهم أحداث العصر المختلفة بدون فهم فحوى تلك الرسائل، لأنها ترسم صورة دولة هذا القائد. للمزيد انظر رسالة ماجستير كامران علي فتح الله الموسومة (ديوان الرسائل في عهد صلاح الدين الايوبي) الجامعة المستنصرية-بغداد، ٢٠٠٩، غير منشوره.

الطويل و القاسي المعروف الذى دام إثنتين و عشرين سنة، طلب من خلال تلك الرسائل معونة من هذا الملك المغربي المكافح[١٣٧] الملقب (الخليفة المنصور)

ثانياً: الرسائل التي بعث بها ديوان رسائل السلطان في الفترة التي سبقت حطين، أي قبل إلتحاق إبن شداد بركب صلاح الدين يوسف، كتب اكثرها الكاتب البليغ الشهير القاضي الفاضل الذي رافقه القاضي المؤرخ الى اللحظات الأخيرة من حياة القائد، كما ذكرنا، وكان بوسعه أن يطلبها من القاضي الفاضل ليرفقها مع كتابه (سيرة صلاح الدين)، ولاسيما و أن الرجل كان يُبقى نسخة من رسائله، و الدليل هو ان تلك الرسائل، او اكثرها، قد جمعت في كتاب يضم بين دفّتيَه اكثر من مائة رسالة وقد صرف هذا القاضي اكثر حياته صحبة صلاح الدين يوسف الذي قال عنه أمام محفل من الرجال ((بأنيّ لم أنتصر بسيوفكم، بل إنتصرتُ بقلم القاضي الفاضل)) كذلك و توفي هذا الكاتب البليغ في مصر[١٣٨].

لقد غابت رسائل هذا القاضي و الكاتب الفاضل عن كتاب القاضي المؤرخ، كذلك غابت عنه رسائل الكاتب الثاني في ادارة دولة السلطان، إضافة الى كتبه الغزيرة التي ألّفها في التاريخ و الأدب، و إجادته للغتين العربية و الفارسية، أقصد القاضي عمادالدين محمد بن صفي الدين محمد بن حامد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) في دمشق و كان من بيت الرئاسة و العلم و الكتابة، نذكر عناوين بعض كتبه:

١- نصرة الفترة و عصرة القطرة: في تاريخ الدولة السلجوقية.

٢- الفتح القسي في الفتح القدسي: ارّخ فيه الفترة من فتح صلاح الدين للقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وما تلا ذلك من فتوح هذا القائد، و حتى سنة وفاته في ٥٨٩هـ/١١٩٣م.

(١٣٧) أنظر بحثنا تحت عنوان (أسباب و طبيعة اتصال صلاح الدين مع الخليفة المنصور الموحدي في المغرب) المنشور في مجلة جامعة الملك سعود، الرياض، كلية الآداب، العدد(٢٢)، سنة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٣٨) وكان بمثابة رئيس ديوان رسائل دولة صلاح الدين يوسف.

٣- البرق الشامي، في سبعة أجراء، بدأ من تاريخ الملك العادل نورالدين محمود، و انتهاء بحوادث سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، و أتمّ الكتاب في سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م، ولم يتم العثور من تلك الأجراء سوى على الجزذ الثالث و الجزء الخامس منها[١٣٩]. وقد اختصر هذا الكتاب-على غرار كتب اخرى لعمادالدين- الكاتب قوام الدين الفتح بن علي البنداوي الاصفهاني (توفي بعد ٦٤٢هـ/١٢٤٣م)[١٤٠].

٤- ديوان شعره في أربع مجلدات وهو مفقود.

٥- خريدة القصر و جريدة العصر، في عشر مجلدات كبار يضم تراجم و اشعار من ماتوا بعد سنة خمسمائه، وهو أهم مصدر في تاريخ الأدب العربي في العراق و الشام و مصر و اليمن و الحجاز و الجزيرة الفراتية و المغرب و الاندلس و جزيرة صقلية و بلاد فارس و خراسان. و بلغ عدد كتبه الى ستة عشر كتاب، و بلغ عدد صفحاتها عشرات الآلاف[١٤١]، بعضها مفقود.

وإذا كان القاضي بهاءالدين ابن شداد لايذكر الرسائل التي كتبها هذان الكاتبان الشهيران، والتي بعثها السلطان الى الجهات المعنية، إلا أن كُتّاباً آخرين، كتبوا عن دولة صلاح الدين في العقود التالية فدوّنوا تلك الرسائل لأهميتها القصوى، والتي بلغت الى مستوى الوثائق، فلولاها لما عرفنا جوانب مهمة من سيرة صلاح الدين، و علاقاته مع الأطراف، خاصة مع الخليفة العبّاسي في بغداد و الخليفة الموحّدي في المغرب، و مراسلاته مع جماعات اخرى.

(١٣٩) تم طبعها في مؤسسة عبدالحميد شومان سنة ١٩٨٧، في عمان-الأردن. وقد قام الدكتور مصطفى الحيّاري بتحقيق الجزء الثالث. و الدكتور فالح صالح حسين بتحقيق الجزء الخامس.

(١٤٠) جمع الاستاذ الدكتور ناظم رشيد شيخو أشعار عمادالدين في كتاب طبعته جامعة الموصل، سنة ١٩٨٣.

(١٤١) أنظر المقدمة التي كتبها الدكتور رمضان ششن محقق الكتاب في صدر (سنا البرق الشامي). طبعة مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الاسلامية، استانبول ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

وفى طليعة الكتّاب المتأخرين، اي الذين لم يعاصروا صلاح الدين يوسف، بل عاصروا حكم اولاده، او عاصروا نهاية دولة بني أيوب، يأتي أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقى (توفي ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) الذي نقل رسائل كثيرة من رسائل السلطان في (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) و المقصود بالدولتين (النورية و الصلاحية). فصفحات هذا الكتاب تطفح بمكاتبات السلطان، سواء مع الخليفة العباسي المستضىء بنور الله، ومع وزيره، والى نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكى، والي الخليفة الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن، والي سيف الدولة بن منقذ، وقد نقل ابو شامة المقدسي الدمشقي هذه الرسائل من القاضي الفاضل المذكور.

اضافة الى ما نقله المؤرخ (ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي، المتوفى (سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) من رسائل القاضي الفاضل في الجزء الثاني من كتابه (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)[١٤٢].

كما نقل ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر الأربلي المتوفى سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) في كتابه (وفيات الاعيان و أنباء الزمان) نصوص الرسالة التي بعث بها السلطان الى الخليفة المستضيء المذكور، كتبها-كاكثر رسائله-كاتبه و مستشاره الشهير المذكور كذلك[١٤٣].

ولعل من المفيدان نذكر ان هذا المستشار الفاضل واصل تقديم مشورته و نصائحه بعد ان قدّم تعازيه بكلمات تعبّر عن حجم الكارثة التي حلّت بالأسرة الأيوبية و بالمسلمين برحيل السلطان القائد الكبير، فكتب في ساعة موته الى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة

(١٤٢) انظر على سبيل المثال صفحات المفرّج: ٢٥ و ٣٠٦ و ٣٣٢ الى الخليفة الناصر لدين الله، ثم الى الملك السلجوقي مظفرالدين قرا ارسلان (صاحب بلاد العجم)، والي عزالدين مسعود بن مودود صاحب الموصل، ص٣٠٧، والي ملك المغرب، الخليفة الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن.

(١٤٣) وفيات الاعيان، طبعة دار صادر ١٩٦٨، تحقيق د. احسان عباس، ١٧٩/٧.

مضمونها: ﴿لقد كان لكمُ في رسول الله أسوةٌ حَسَنَةٌ﴾[١٤٤] و ﴿إنّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ﴾[١٤٥]، كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسنَ اللهُ الخلف عزاءّه و جبر مصابه، و جعل فيه الحلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حَفرَت الدموعُ المحاجرَ، و بلغت القلوب الحناجرَ، وقد ودّعتُ أباكَ و مخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبّلتُ وجهَهُ عني و عنك، و أسلمتُهُ الى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولاحول له و لاقوة إلا بالله... و إنا عليك لمحزون يا يوسف. و أمّا الوصايا فما تحتاجُ إليها، و الآراء فقد شغلني المصاب عنها. و أمّا لائح الأمر فانه إن وقع اتفاق فما عَدِمتمُ إلا شخصه الكريم، و إن كان غيره[١٤٦] فالمصائب المستقبلة (القادمة) أهونها (أصغرها) موتهُ، وهو الهول العظيم، و السلام[١٤٧].

يعلق ابن خلكان على كلام القاضي الفاضل البليغ بقوله: ((لله درّه، فلقد أبدعَ في هذه الرسالة الوجيزة، مع ما تضمّنته من المقاصد السديدة، في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الانسان عن نفسه)).

ولم ينس المؤرخ الأربلي ان يزورَ قبره، فيذكر إنه زارَ قبر السلطان في اول جمعة من شهر رمضان سنة ثمانين و ستمائة[١٤٨] فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته جملة: ((اللهمّ

(١٤٤) سورة الأحزاب: (٢١).

(١٤٥) سورة الحج: (١)

(١٤٦) يقصد القاضي الفاضل: عدم إتفاق اولاد صلاح الدين يوسف فيما بينهم، من جهة، و بينهم يستشرق و بين اولاد الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن أيوب، و كأنه كان يستيشرف الأحداث المؤسفة التي حصلت و ادّت الى قِصر عُمر دولة بني أيوب، بالنسبة لعمر الدول الأخرى التي حكمت مصر (و معها بلاد الشام) قبل و بعد هذه الدولة، كالدولة الفاطمية و دولة المماليك.

(١٤٧) ابن خلكان: وفيات، ٢٠٥/٧.

(١٤٨) للهجرة، وتصادف ١٢٨١م، اي قبل وفاته بنحو سنة، و توفي ابن خلكان في ٢٦ رجب ٦٨١هـ في دمشق، و دفن بسفح جبل فاسيون.

فأرض عن تلك الروح، و إفتح له أبواب الجنة، فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح)) و ذكر قيّم المكان (المشرف على قبره): ان هذا من كلام القاضي الفاضل[١٤٩].

نعود الى موضوع مراسلات السلطان، التي أهمل ذكرها مؤرخ سيرته، موضوع بحثنا، و نقول: لانستطيع أن نسرد أسماء المؤرخين كلهم ممن حصلوا على تلك الرسائل، او بعضها، ولكننا نذكر المؤرخ اليماني بدرالدين محمد بن حاتم في كتابه (السمط[١٥٠] الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغزّ باليمن) كما نذكر القلقشدي، أحمد بن علي بن عبدالله المصري (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) في كتابه الموسوعي (صبح الأعشى في صناعة الانشاء). و أخيراً، و ربما ليس أخيراً، نذكر الحنبلي عزالدين أحمد بن ابراهيم من نصرالله العسقلاني المصري (ت٨٧٦هـ/١٤٧١م) في كتابه (شفاء القلوب في مناقب بني ايوب.

نسترسل قي ذكر قصور (نقص) ابن شداد في إهماله لشان مكاتبات السلطان و نسأل: ترى أليس أمراً غريباً ألاّ يذكر مؤرخ صار بمثابة كاتب يومياته-هذه الرسائل، على خطورتها، ولا سيّما و ان تلك المكاتبات لم تكن من باب الترف، بل كان امراً أساسياً، و جزءاً مهما من تاريخ عصر صلاح الدين و علاقاته الدبلوماسية[١٥١]، فعدم التطرف الى رسائل السلطان، يعدّ أمراً خطيراً فكان من الاولى لقاضي عسكره ان يذكرها، خاصة اذا علمنا انه كان يهتم بتدوين ملاحظات على امور لم تكن مهمة، لكنها كانت جزءاً من الكتابات المنقبية التي لاتهم الباحث كثيراً، بل يعدها من باب الترف.

(١٤٩) وفيات الأعيان: ٢٠٦/٧.

(١٥٠) السمط: الخيط مادام الخرز او اللؤلؤ منتظماً فيه. الغز: قوم من الترك، و المؤرخ اليماني يقصد ملوك الكرد و الترك، اي حكم الدولة الايوبية و الرسولية في اليمن.

(١٥١) ولولا هذه الأهمية لما تجشم باحث على دراستها في بحث أكاديمي ينال عنه درجة الماجستير، اقصد دراسة الباحث كامران علي فتح الله المذكورة.

زيجات و اولاد صلاح الدين

جانب آخر من قصور القاضي المؤرخ بخصّ حياة صلاح الدين يوسف، هو عدد زوجاته، و عدد اولاده، ربما لم يذكر الجانب الاول لسبب إجتماعي، ولأنه موضوع شخصي، و هذا أمر مقنع في مجتمع محافظ، و بالنسبة لزعيم كاريزمي من طراز السلطان، سلطان المسلمين المحاربين كافة. رغم ان قادة عديدين تمّ ذكر عدد زوجاتهم، وإقهات اولادهم[١٥٢]، بينهم بعض الخلفاء، في العراق و مصر الفاطمية، و في الأندلس.

الا ان الجانب الثاني، ذكر عدد اولاده، جانب مهم ولاشك، ولاسيما و انه ذو علاقة بما حصل-فيما بعد- من تباعد، و عدم توحيد صفوفهم تجاه الفرنجة الذين كانوا لا يزالون يحتلون أجزاء من بلاد الشام، سواء في الساحل الشمالي (امارة انطاكية) و الجنوبي (مملكة بيت المقدس) التي إتخذت من عكا عاصمة لها، ثم استعادوا-اي الفرنجة- القدس ثانية.

لم يذكر ابن شداد ذلك، الا أننا نعثر في كتاب (مفرج الكروب) تحت عنوان ((ذكر مبلغ سنوات عمره و اولاده و تركته))[١٥٣] أمّا ما يتعلق بعدد اولاده، فيذكر: ان السلطان خلف سبعة عشر ولداً ذكراً و بنتاً واحدة هي مؤنسة خاتون، و نستطيع ان نستكشف من عدد اولاده، و من ذكر علاقة بعضهم من طرف الأم ((دون ذكر إسمها)) و نعرف، و لو بشكل تقريبي، عدد زوجاته، فيذكر (ابن واصل):

١- الملك الأفضل نورالدين علي، اكبر اولاده، ولد بمصر سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م، وكان عمره يوم ولي ملك دمشق بعد أبيه نحواً من أربع و عشرين سنه.
٢- شقيقه الملك المفضل قطب الدين موسى، ولد بمصر سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م.
٣- شقيقه الآخر الملك الظافر مظفرالدين خضر (لايذكر سنة ولادته، ولا اين ولد).

اذن فهم من أمّ (أو من زوجة) واحدة، و لعلها كانت زوجته الاولى.

(١٥٢) ام ولد: المملوكة التي تجنب ذكراً، فتتحرر من صفة العبد، لكنها تبقى تحمل صفة (ام ولد) و ليس (زوجة).

(١٥٣) مفرج الكروب، ٤٢٣/٢.

٤- الملك العزيز عمادالدين عثمان، صاحب مصر، و مولده بمصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م.

٥- شقيقه الملك الأعز شرف الدين يعقوب، ولد بمصر سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م.

وهما من أم (أو من زوجة) واحدة.

٦- الملك الظاهر غياث الدين غازي (ثم شهاب الدين) غازي-صاحب حلب. مولده بمصر سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م.

٧- شقيقه الملك الزاهر مجيرالدين داود، ولد بمصر، ٥٧٣هـ/١١٧٨م.

وهما من أم (أو من زوجة) واحدة.

٨- الملك المؤيد نجم الدين مسعود، ولد بدمشق سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م).

لايذكر له شقيق، فهو من أم (او من زوجة) أنجبته لوحده، او بقي على قيد الحياة لوحده.

٩- الملك المعز فتح الله إسحق، ولد بمصر سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م.

١٠- شقيقه الملك الجواد ركن الدين ايوب. ولد سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م (لم يذكر أين ولد، و يحتمل انه ولد بمصر على غرار شقيقه).

وهما من أم (أو من زوجة) واحدة.

١١- الملك الاشرف نصير الدين محمد. ولد بالشام سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م.

١٢- و شقيقه الملك المحسن يمين الدين احمد. ولد بمصر سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م.

وهما من أم (أو زوجة) واحدة.

١٣- الملك المعظم فخرالدين توران شاه (على اسم اخي السلطان) ولد بمصر سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م.

١٤- شقيقه الملك الغالب ملكشاه. مولده بالشام سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م.

وهما من أم (او من زوجة) واحدة.

١٥- الملك المنصور سيف الدين ابوبكر، ولد بحران في منطقة الجزيزة بعد وفاة السلطان[١٥٤].

وهو شقيق الملك المعظم.

١٦- نصرة الدين مروان.

١٧- و أخيراً عمادالدين شادي. وهذا يعني ان القائد انجب خلال (٥٦٧-٥٧٣هـ) علي التوالي، اي خلال ست سنين (٧) من اولاده، وانجب خلال (٥٧٣هـ) كذلك و (٩) من اولاده ولدوا في عصر ويبدو انه كان يصحب معه بعض زوجاته في جولته بين مصر والشام والجزيرة، فقد انجبت (تورانشاه) في مصر (٥٧٧هـ)، ثم انجبت ملكشاه (٥٧٨هـ) في الشام، اي بعد سنة، وبعدة، و بعده انجبت ابابكر في صراف شمالي بلاد الشام، اي في مطقة الجزيرة.

و بذلك يكون السلطان قد تزوّج سبع مرات في الاقل و لأن الشرع الاسلامي لا يبيح الزواج اكثر من أربع زوجات في وقت واحد، فيكون بعض زوجاته توفين بعد أن أنجبن بعض الاولاد المذكورين. ولانريد الا طالة في مثل هذا الموضوع، ولكننا نوجه نقدنا الى القاضي المؤرخ الذي لم يتطرق الى هذا الشأن، وهو معاصر للسلطان و يرافقه في حلّه و ترحاله وكان بمقدوره-اكثر من أي مؤرخ آخر- أن يخبرنا بحقيقة ما حصل، و الا يكتفي بغضّ الطرف عن شأن له أهميته القصوى في المجتمعات الاسلامية، عكس المجتمعات غير الاسلامية، كمجمعات النصارى التي لانسمع بالزواج باكثر من واحده. ولاسيما و ان الأمر متعلق برأس دولة كانت سمتها انها دولة تأسست على متن فرس. و سكوت ابن شداد ترك الباب مفتوحاً أمام تساؤلاتنا و الواقع انه لولا الجدول، او ابن مايشبه الجدول، الذي تركة ان واصل و غير ابن واصل، عرفنا السر في كثرة اولاد لما السلطان، و ربما كانت هذه الكثرة، أحد أسباب اقول دولة هذا الصنديد الباسل، بهذه السرعة بسبب الصراعات التي عاشها الجيل التالي اولا (صلاح الدين). و ربما يُطلب منا أن ننقد العقل الاجتماعي او أعراف ذلك العصر، في عدم ذكر عدد

---

(١٥٤) على عكس ما يقوله إبن شداد، النوادر، ص٤١٤. ان أحد اولاده و الذي يحمل الاسم نفسه كان موجوداً، و بالاسم نفسه.

زوجات هذا القائد، إلا أن هذا النقد لن يصمد، فإذا كان العقل الاجتماعي بأنف التطرق الى مثل هذا الموضوع، فكيف سمح لغير إبن شداد ان يكتب عنه، بحيث صرنا نعرف عدد زوجات السلطان، و بعض أمهات أولاده. و عدد اولاده (الأحياء) و مساقط رؤوسهم، و تواريخ ميلاد كل واحد منهم و أسمائهم.

ولهذا فاللوم يوجه الى ابن شداد لوحده، و دون غيره في هذا الشأن، كما وجهنا له اللوم في عدم تدوينه نصوص مكاتبات السلطان، بل و عدم التطرق اليها برغم علاقاته الوطيدة مع كاتبها الشهير القاضي الفاضل وهذا يعد نقصا خطيراً من كتاب ابن شداد و منصور اخر يوجه اليه.

وما جعلنا أن نفصل، بعض الشيء، في مسألة عدد اولاده و بالتالي في عدد وقصورا اخر يوجه اليه زوجاته، هو قول إبن شداد ان هذا الرجل ((هجر في محبّة الجهاد قي سبيل الله أهله و اولاده و وطنه و سكنه و سائر ملاذه و قنع من الدنيا في ظل خيمة))[١٥٥] فالسلطان لم يهجر أهله و مساكنه و سائر ملاذه في محبة الجهاد وفي سبيل الله ولم عيش في ظل ضحية بشكل دائم. فحب الجهاد يدعو الى من المجاهدين، وقد أنجب منهم عدداً فيه الكفاية*، ولهذا فهو لم يهجر أهله و زوجاته اللواتي عاشت أعداد منهن في مصر بالدرجة الاولى، و بعض زوجاته عشن و أنجبن في الشام، او في منطقة الجزيرة ((في حران)) وربما في مدن اخرى كذلك.

اما إهماله لتلك الرسائل الخطيرة، فنقول ان مؤرخنا بهاءالدين بن شداد لم يهمل ذكر أخبار رسائل (وصلت) الى صلاح الدين نقول (ذكر أخبارها) و ليست نصوصها، ثم انها رسائل ارسلت، و ليست رسائل بعث بها المسؤول عن ديوان رسائله القاضي الفاضل، او بعث بها الشخص الثاني فيه، وهو عمادالدين الكاتب الاصفهاني.

فهل ياترى كان هذا المؤرخ يحاول ان يغطى على كتّاب تلك الرسائل البليغة و دورهم البارز في دولة هذا القائد، من باب الغيرة، رغم انه يذكره حين يشاء ليثبت لقراء كتابه، و

(١٥٥) النوادر، ص:٧٦.

* رغم ان بعضاً منهم لم يغدو مجاهدين بعد رحيل والدهم.

للملأ ان دورهما كان متناظراً، ففي احد الاجتماعات-وكان صلاح الدين يكثر منها أثناء الأزمات- ((و حضر من المعمّمين (من العلماء): القاضي الفاضل، و الديوان، و كنت في الصحبة في ذلك اليوم))[١٥٦].

ثم يذكر في اكثر من موضع من كتابه خلال الايام القليلة الأخيرة من حياة السلطان مرافقته للقاضي الفاصل، فتحث (ذكر مرضه) يكتب: ((حضرت عنده انا و القاضي الفاضل، و دخل ولده الملك الأفضل))[١٥٧]. وفي اليوم السادس من مرضه-اي قبل رحيل القائد بخمسة أيام- يقول: ((فخرجنا أنا و القاضي الفاضل))[١٥٨] من مسكن السلطان: ثم في ذكر وفاته-رحمة الله عليه- يقول: ((واستُحصرتُ أنا و القاضي الفاضل في تلك الليلة))[١٥٩] وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه ليلة الأربعاء السابع و العشرين من صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة و أخير يقول المؤرخ ابن شداد: ((و بادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، و وصلت انا وقد مات))[١٦٠].

يستكشف من هذه الجمل المقتضبة ان علاقة ابن شداد قد توطّدت في تلك الأيام الصعبة التي سبقت رحيل رجل عصره، بطل الحروب الصليبية. و لأنه الف كتابه و فرغ منه بعد رحيل السلطان، فكان بوسعه أن يستفيد-بشكل او بآخر- من رسائله، و يدوّنها-كوثيقة جليلة الشأن- في كتابه لتزداد قيمته.

و لعلّ من الامور الغريبة، ان المؤرخ ذكر بعض الاخبار عن وصول الرسائل الى السلطان، سواء اكانت من جهات أجنبية او من جهات اسلامية، فيدوّن تحت عنوان ((صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني)) يقول: ولقد وصل الى السلطان-رحمه الله- كتاب من

(١٥٦) النوادر: ص٢٧٠.

(١٥٧) نفسه: ص٤١٧.

(١٥٨) نفسه: ص٤١٨.

(١٥٩) نفسه: ص٤٢١.

(١٦٠) نفسه: ص٤٢٢.

الكاغيكوس[١٦١] وهو مقدّم او -ملك- الأرمن، و صاحب قلعة الرّوم التي على طرف الفرات، و يضع عنواناً ملفتاً للنظر: ((نسخة))

ثم: هذه ترجمته:

كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس

ممّا أطالع به علوم مولانا و مالكنا السلطان الناصر-جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل و الاحسان، صلاح الدنيا و الدين، سلطان الاسلام و المسلمين، أدام الله إقباله، و ضاعف جلاله، وصان مهجته وكماله، وبلّغه نهاية آماله، بعظمته و جلاله-من أمر ملك الالمان و ما جرى له عند ظهور.

و ذلك: انه اول ما حرج من دياره، و دخل بلاد الهنكرَ[١٦٢] غصباً و غصب ملك الهُنكر بالاذعان و الدخول تحت طاعته، و أخذ من ماله و رجاله ما إختار، ثم أنه دخل أرض مقدَّم الروم[١٦٣]، وفتح البلاد و نهبها.

يواصل الكاغيكوس إرسال تقريره الى السلطان عن تحرّكات امبراطور المانيا[١٦٤] وهو يقود أضخم قوة قتالية في الحروب الصليبية، في الحملة الثالثة، تلك القوة التي حسب لها صلاح الدين يوسف حسابها لخطورتها، والتي توجّهت عبر بلاد الهنكار و البلغار، و ما قامت بها من اعمال القتل و السلب.. حتى وصلت قونية عاصمة الترك السلاجقة و يحكمها قطب الدين ابن قليج ارسلان، فجمع هذا عساكره، الا أنه لم يستطع الوقوف بوجه الألمان، فقتل هؤلاء جموعاً عظيمة من المسلمين الترك و الفرس، و اقام في قونية خمسة أيام، و طلب قطب

(١٦١) يقول محقق الكتاب: لعلّ (الكاغيكوس) في الارمنية (كاغيك/خاجيك) باضافة حرفي (وي/OS) اليونانية الى اسم المذكر المرفوع.

(١٦٢) اي هنكاريا (المجر).

(١٦٣) اي اراضي الامبراطور البيزنطي اسحاق الثاني أنجيلوس، فاجتاز اولاً أقاليم بيزنطة الاوروبية في آذار (١١٩٠م)، ثم عبر اقليمي ليدياو فريجيا في آسيا الصغري.

(١٦٤) المقصود فريدريك بار باروسا. (ذو اللحية الحمراء).

الدين الأمان.. تواصلت قواته السير باتجاه الشرق ثم الجنوب الشرقي، و نزل ليستحم في نهر آراس في مائه البارد، فمات على إثره بعد ايام قلائل.. وحلّ محلّ ابنه.

يستغرق تقرير الكاغيكوس المرسل الى ديوان السلطان ثلاث صفحات من كتاب القاضي المؤرخ[١٦٥].

مايهمنا في هذه الرسالة المترجمة من اللغة الأرمنية او الرومية الى العربية ليس فحواها فحسب-هنا- بل عناية ابن شداد بها، و بذكر تفاصيلها.

كما دوّن هذا المؤرخ مراسلة ملك قسطنطينية مع الباب السلطاني، حسب وصفه، في ٥٨٥هـ/١١٨٩م، ((في جواب رسول كان أنفذه السلطان اليه بعد تقرير القواعد و إقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية)). وكان السلطان ((قد أنفذ معه في المركب الخطيب و المنبر و جمعاً من المؤذّنين و القرّاء)). و أقام الدعوة الاسلامية العباسية[١٦٦].

حتى في علاقة السلطان مع خليفة زمانه العباسي، فان مؤرخنا الذي أهمل كل المكاتيب التي كتبها القاضي الفاضل بطلب من صلاح الدين يوسف[١٦٧]، ناهيك عن الجهات الأخرى، فانه-اي ابن شداد- دوّن الرسالة القادمة من بغداد، و ليست المرسلة اليها رغم ان اطلاع ابن شداد على الرسالة من السطان كان امرا غير عسيرا، سهلا و هذا مايجير المتابع حقاً، مع أن أحداً-حسب علمنا- لم يتطرق الى مثل هذا الأمر.

يذكر القاضي المؤرخ تحت عنوان: ((ذكر كتاب وصل من بغداد))

(١٦٥) انظر ص ص: ٢٢١-٢٢٣.

(١٦٦) التفاصيل، و نص الرسالة ((ايساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله، المتوّج من الله المنصور العالي ابداً، (أقعقوس) المدبّر من الله القاهر الذي لا يغلب. ضابط الروم انكليوس الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين))، انظر: ص ص: ٢٢٣-٢٢٤.

(١٦٧) والتي يبلغ عددها اربعة عشر (١٤) رسالة في الأقل، عدا الرسائل التي كتبها عمادالدين الكاتب. انظر كتاب (رسائل القاضي الفاضل).

يقول: ولما كان السبت الثاني عشر من شوال من السنة المذكورة (٥٨٧هـ/١١٩١م) وصل من دمشق كتاب من النواب بها، في طيّه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي-مجّدهُ الله تعالى- يتضمن فصولاً ثلاثة)). لانرى داعياً لذكر هذه الفصول، وقد تحدّثنا عنها في رسالتنا في مرحلة الماجستير، وهي فصول او بنود تشير بوضوح الى عمق الخلافات بين السلطان و بين خليفة بغداد[١٦٨]. وما يؤكد هذا هو انه البند الثالث من كتاب بغداد ((يتضمن التقدم باحضار (ارسال) القاضي الفاضل الى الديوان العزيز رسولاً ليقرّر معه قواعد، و تكشف اليه أسباب))[١٦٩].

كان اسلوب جواب (او ردّ) السلطان غير ودّي، يليق باسلوب الديوان العزيز مواقفه المجافية بحق قائد المسلمين في التصدّي للوجود الصليبي، و هذا أمر معروف لدى المعنيين، بلغت تلك المواقف الى حدّ القطيعة، بل الى قتل امير الحجاج الذي عيّنه صلاح الدين يوسف ليقود حجاج رعايا دولته، وهو ابن المقدم بيد امير حجاج العراق، فاشتط السلطان غضباً[١٧٠]، وقرّر إتخاذ موقف مماثل لمواقف الخلافة.

وما يهمنا هنا هو رفض صلاح الدين يوسف لمطالب بغداد الثلاث. الا اننا نضيف ان مطلب الخلافة الثالث يخص مكانة القاضي الفاضل الرفيعة، ليس في تشكيلة دولة السلطان، و هذا أمر بات معروفاً، فحسب، بل نيله ثقة بغداد التي أعلنت و كأن الخلافات، ولم تكن ثمة خلافات أصلاً، لن تحسم الا بأرسال رجل له مقامه العالي المعروف، الا ان صلاح الدين لم يُنفّذ مطلب الخليفة: يقول ابن شداد: اما الفصل الثالث: فانه-اي السلطان- إعتذر عن ارسال القاضي الفاضل، بانه كثير الامراض، و قوته تضعف عن الحركة الى العراق[١٧١]. فكان هذا حاصل الجواب)).

(١٦٨) للمزيد انظر كتابنا ((نناشد صلاح الدين ام نحاسب انفسنا).

(١٦٩) النوادر، ص ٣٤٢.

(١٧٠) النوادر، ص١٦٦.

(١٧١) كان عمر القاضي الفاضل يومئذ سبع و خمسين سنة، اذاته ولد سنة ١١٣٤م (٥٢٩هـ).

مصادر الدراسة الأساسية

١- ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر الاربيلي. (ت ٦٨١هـ/ ١٠٢٨م).

وفيات الأعيان و أنباء أنباء الزمان. تحقيق د. إحسان عباس. طبعة دار صادر بيروت، ط٤/٢٠٠٥.

٢- ابن شداد، بهاءالدين يوسف بن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ/١٢٤٥م).

((النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية)) سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي، تحقيق أحمد ايبش، دار الأوائل، دمشق، ط٢/٢٠٠٥.

٣- القاضي الفاضل، مجيرالدين عبدالرحيم البيساني (ت٥٩٦هـ/)

دراسة و تحقيق الدكتور علي نجم عيسى منشورات دار الكتب العلمية-بيروت ٢٠٠٥.

٤- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) مُفرج الكروب في أخبار بني أيوب (عصر صلاح الدين الجزء الثاني ٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م) مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، القاهرة ١٩٥٧.

٥- إحسان حلاق، عباس صباغ (الدكتوران) المعجم الجامع في المصطلحات الايوبية و المملوكية و العثمانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٩.

٦- كامران علي فتح الله، ديوان الرسائل في عهد صلاح الدين، رسالة ماجستير-غير مطبوعة، الجامعة المستنصرية-بغداد-٢٠٠٩.

٧- محسن محمد حسين، اسباب و طبيعة إتصال صلاح الدين مع الخليفة المنصور الموحّدي في المغرب، مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، الرياض، سنة ١٩٩٠.

8- Stanley-Lane-Poole. Saladin and the fall of the kingdam of Jerusalem, London, 1914, p. VI.

ولم نذكر مصادر و مراجع أخرى وردت في ثنايا الكتاب.